

# الباب الاول

## نشأة الفلسفة النظرية

( القرنان السادس والخامس قبل الميلاد )

٧ - تمهيد :

١ - إن أول اتجاه الفكر إنما يكون إلى الخارج يطلب حقيقة الأشياء . فإما أن يستوقفه التغير ، وهو بالفعل أعم وأخطر ظاهرة في الطبيعة ، سواء أكان عرضياً ، أى انقلاب الشيء من حال إلى حال ، أو جوهرياً ، أى تحول الشيء إلى شيء آخر ، كتحويل الغذاء إلى جسم الحى ، والخشب إلى الرماد ، فيدرك أن الأجسام على اختلافها مصنوعة من مادة أولى هي محل التغيرات ، فيبحث عن هذه المادة التي تتكون منها الأجسام ، ثم تعود إليها . وإما أن يُعنى بما في تركيب الأجسام من نظام ، وفي أفعالها من اطراد ، ويعلم أن النظام في العدد ، فيتصور العالم تصوراً رياضياً . وإما أن يرى في ذات فكرة التغير تناقضاً ، إذ يبدو له التغير صيرورة من لا شيء إلى شيء ، ومن شيء إلى لا شيء ، فينكره ويقول بالوجود الثابت . وتلك هي الوجهات الثلاث التي يمكن تبينها في الوجود ، وهي الوجهة الطبيعية ، والوجهة الرياضية ، والوجهة الميتافيزيقية .

ب - ومن الغريب أن قد وفق اليونان إلى الكشف عن هذه الوجهات الثلاث لأول اشتغالهم بالفلسفة ، فظهرت ثلاث مدارس متعاصرة لكل منها مزاج ومذهب . ظهرت مدرسة في أيونية عالجت العلم الطبيعي : ثلاثة من رجالها نشأوا في ملطية ، وهم طاليس وأنكسيمندريس وأنكسيانس ، ورابع نشأ في أفسوس ، هو هرقليطس . ولكن الفرس أغاروا على أيونية وأخضعوها ، فانتقلت الحياة العقلية إلى إيطاليا الجنوبية وصقلية ، فنبت هناك فيثاغوراس صاحب الوجهة الرياضية ، وظهرت المدرسة الإيلية القائلة بالوجود الثابت . ثم نشأ فلاسفة أخذوا من كل وجهة بطرف وحاولوا التوفيق بينها ، وهم انبادوقليس وديموقريطس وأنكساغوراس .

ج - ويذكر لكل من هؤلاء أو لمعظمهم كتاب بعنوان « في الطبيعة » أى في

الجوهر الأول الثابت تحت التغير والتحول . وليس يعنى هذا أن أصحابها كانوا يسمونها بهذا الاسم ، فإن المؤلفات النثرية القديمة لم تكن تمنون ، وإنما كان الكاتب يذكر اسمه ويشير إلى موضوع كتابه في العبارة الأولى ، وقد قلنا إن موضوعهم كان تفسير الوجود . ضاعت تلك الكتب جميعاً ؛ وظلت أخبار أوامك الفلاسفة ناقصة ، وتوارى عنهم تقريبية . ونحن نعرفهم مما يرويه عنهم أفلاطون وأرسطو<sup>(١)</sup> ، ومن تراجع دونت في عهد متأخر ، واختلط فيها الخيال بالحقيقة<sup>(٢)</sup> ، ومن عبارات لهم جمعت من مختلف الكتاب القدماء .

---

(١) جرت المادة في الإحالة إلى أقوال أفلاطون باعتماد طبعة Henri Estienne (ليون ١٥٧٨) وصفحاتها مقسمة خمسة أقسام يدل عليها بالأحرف a b c d e لتسهيل الرجوع إلى الموضوع المقصود . ومعظم الطبقات الجزئية والترجمات الحديثة تشير في هوامشها إلى هاته الصفحات وأقسامها . فرأينا أن نتبع هذا الاصطلاح مع استبدال الأحرف الأبجدية ab ج د ه بالأحرف الألفبائية فنكتب مثلاً : الجمهورية ص ٤٤٠ (ب) في مقابل : Rep. 440 b .

أما أقوال أرسطو فيعاني فيها إلى طبعة أكاديمية برلين ، وصفحاتها مقسمة إلى عامودين يدل عليهما بصرفي a, b ؛ وفي كل عامود السطور مرقومة ، فيذكر مثلاً De Anima 429 b 10-24 ونكتب نحن كتاب النفس ص ٤٢٩ ع ب ص ١٠ — ٢٤ أى ص ٤٢٩ عامود ب سطر ١٠ — ٢٤ . أو نكتب فيذكر اسم الكتاب ورقم المقالة والفصل ، فإن كتيبه مقسمة إلى مقالات وهذه إلى فصول .

(٢) أشهرها كتاب ديوجانس اللايرثي في « حياة الفلاسفة » الذي يرجع إلى القرن الثالث قبل الميلاد .

## الفصل الأول

### الأيونيون

#### أو نشأة العلم الطبيعي

٨ — طاليس ( ٦٢٤ — ٥٤٦ ) :

١ — هو أحد الحكماء السبعة . انفراداً بالعناية بالعلم ، وكانوا يفتنون بالسياسة والأخلاق .  
جال أنحاء الشرق ، وتبحر في العلوم . وعما يذكر عنه أنه عمل كهندس حربي في خدمة  
قارون ( آخر ملوك ليديا في آسيا الصغرى ) وبرهن على أن الزوايا المرسومة في نصف الدائرة  
فهي قائمة ، وكان يحسب من فوق برج أبعاد السفن في البحر ، وأنبأ بكسوف الشمس  
السكلى الذى وقع في ٢٨ مايو سنة ٥٨٥ ، ووضع تقويماً للملاحين من أهل وطنه ضمنه  
إرشادات فلكية وجوية ، منها أن الدب الأصفر أدق الكواكب دلالة على الشمال . وجاء  
مصر فأخذ علم المساحة ، وشغل بمسألة فيضان النيل ، ودل أساتذته المصريين على طريقة  
لقياس ارتفاع الأهرام ، وكانوا قد تمبوا في البحث عنها ، فنبههم إلى أن ظل الشيء يساوى  
ارتفاعه في وقت من النهار ، فطول ظل الأهرام في ذلك الوقت هو مقدار ارتفاعها ، وأن  
النسبة تبقى محفوظة بين طول الظل وارتفاع الشيء في أى وقت .

ب — أما أثره في الفلسفة فهو أنه وضع المسألة الطبيعية وضماً نظرياً بعد محاولات  
الشعراء واللاهوتيين ، فشق للفلسفة طريقها ، فبدأت باسمه . قال إن الماء هو المادة الأولى  
والجوهر الأوحى الذى تتسكون منه الأشياء . وكان هذا القول مألوفاً عند الأقدمين . وقد  
صرت بنا عبارة هوميروس أن أقيانوس المصدر الأول للأشياء ، ومن قبل قالت أسطورة  
بابلية : « في البدء قبل أن تسمى السماء وأن يعرف للأرض اسم كان المحيط وكان البحر » —  
وجاء في قصة معسرية : « في البدء كان المحيط المظلم أو الماء الأول حيث كان آتون وحده الإله  
الأول صانع الآلهة والبشر والأشياء » — وجاء في التوراة : « في البدء خلق الله السماوات  
والأرض ، وكانت الأرض خاوية خالية ، وعلى وجه الغمر ظلام ، وروح الله يرف على وجه  
المياه » — ويمادل هذه الأقوال قول علمائنا الآن : إن تكوين العالم بدأ منذ أن تحولت

الأبجزة الأولى ماء . ولكن طاليس يمتاز بأنه دعم رأيه بالدليل فقال<sup>(١)</sup> : إن النبات والحيوان يفتديان بالرطوبة ، ومبدأ الرطوبة الماء ، فما منه يفتدى الشيء فهو يتكون منه بالضرورة . ثم إن النبات والحيوان يولدان من الرطوبة ، فإن الجراثيم الحية رطبة ، وما منه يولد الشيء فهو مكون منه . بل إن التراب يتكون من الماء ويطنى عليه شيئاً فشيئاً ، كما يشاهد في الدلتا المصرية وفي أنهر أيونية حيث يترأكم الطمي عاماً بعد عام ؛ وما يشاهد في هذه الأحوال الجزئية ينطبق على الأرض بالإجمال ، فإنها خرجت من الماء وصارت قرصاً طافياً على وجهه كجزيرة كبرى في بحر عظيم ، وهي تستمد من هذا المحيط اللامتناهي العناصر الفازية التي تفتقر إليها ؛ فالماء أصل الأشياء .

ح — وثمت قول آخر يذكره له أرسطو هو « إن المالم حافل بالآلهة<sup>(٢)</sup> » وينبغي أن يكون معناه أنه حافل بالنفوس ، أى أن كل فعل إنما هو من النفس ، وأن النفس منبثقة في العالم أجمع ، فتكون المادة حية ، ويكون الماء المؤلف من الأشياء حاصلًا على قوة حيوية حاضرة إليه دائماً وإن لم تظهر دائماً . ويشترك في هذا الرأي الأيونيون الذين تتكلم عنهم ، لذلك دعوا « هيلوزويست » أى أصحاب المادة الحية . وما يؤيد هذا التأويل عبارة منسوبة لطاليس ويوردها أرسطو بتحفظ<sup>(٣)</sup> هي أن للحجر المغناطيسى نفساً لأنه يحرك الحديد ، فإنها تدل على أن مبدأ الفل والحركة عنده النفس ، ولما كانت الحركة ظاهرة كلية كانت النفس كلية كذلك .

د — هذا كل ما نعلم عن طاليس ، ويتبين منه أنه تمثل العلم البابلي والمصرى وعمل على تقدمه ، ولكنه استبقاه تجريبياً ، حتى إنباؤه بالكسوف لم يكن صادراً عن أساس نظري ، من حيث إنه كان يعتقد أن الأرض قرص مسطح ، وأنه على ما يذكر هيرودوت إنما أنبا بكسوف تلك السنة فقط ، ومن غير أن يعلم إن كان هذا الكسوف يرى في بقعة من الأرض معينة ؛ فقد يكون اهتدى إليه اتفاقاً ، وقد يكون اعتمد على جداول البابليين . أما فلسفته فهي على العكس شيء جديد . فبدل أن يفسر تنوع الكائنات بتشخيص القوى الطبيعية والرواية عن الآلهة ، نظر إليها على أنها أشياء معروفة محسوسة ، وحاول الاستقراء والبرهنة . فهذا النظر وهذا المنهج هما الريح الذي عاد على الفلسفة . أما قوله بالماء فقد كان آخر صدى

(١) ما بعد الطبيعة لأرسطو م ١ ف ٣ ص ٩٨٣ ع ب س ٢٠ وما بعده .

(٢) كتاب النفس م ١ ف ٥ ص ٤١١ ع ١ س ٨ — ١٠ .

(٣) م ١ ف ٢ ص ٤٠٥ ع ١ س ١٩ — ٢١ .

للتقليد القديم ، ولم يتأبه فيه خلفاؤه ولكنهم فهموا أن وجهته ومنهجه أمران لها قيمتهما الخاصة ، وأنهما مستقلان عن كل قول معين .

#### ٩ — انكسيمندريس ( ٦١٠ — ٥٤٧ ) :

ا — هو تلميذ طاليس فما يرجع ، وخليفته في ملطية . يذكر عن مشاركته الشخصية في تقدم العلم أموراً كثيرة منها لم يثبت ؛ فيقولون مثلاً إنه اخترع المزولة ، والأرجح أنه أخذها عن البابليين إذ قد كانت معروفة عندهم ؛ ويقال إنه صنع كرة فلكية ، ووضع خريطة أرضية استفاداً إلى المعلومات التي كان يأتي بها اليونان إلى ملطية من أنحاء العالم المعروف وقتذاك ، فرسم اليبس يحيط بيمهر ويحيط به بحر .

ب — ولكن المهم عندنا نظريته في العالم . فقد رأى أن الماء لا يصلح لأن يكون مبدأ أول ، وذلك لأنه استحالة الجامد ( البارد ) إلى سائل بالحرارة « فالحر والبارد » سابقان عليه ؛ ولأن المبدأ الأول لا يمكن أن يكون معيناً ، وإلا لم نفهم أن أشياء متبايزة تتركب منه . فدعا المادة الأولى بالامتناهي وقال إنها لا متناهية بمعنيين : من حيث الكيف أي لا معينة ، ومن حيث الكم أي لا محدودة ؛ هي مزيج من الأضداد جميعاً ، كالحر والبارد واليابس والرطب وغيرها ، إلا أن هذه الأضداد كانت في البدء مختلطة متعادلة غير موجودة بالفعل من حيث هي كذلك ، ثم انفصلت بحركة المادة ، وما زالت الحركة تفصل بعضها من بعض ، وتجمع بعضها مع بعض ، بمقادير متفاوتة ، حتى تألفت بهذا الاجتماع والانفصال الأجسام الطبيعية على اختلافها . وأول ما انفصل « الحر والبارد » فتصاعد البخار بفعل الحر ، وكان من هذا البخار الهواء ، أما الراسب فيبس بالتدريج ، فكان منه البحر ثم الأرض . وتكون الحر كرة نارية حول الهواء كما تتكون القشرة حول الشجرة ، وتمزقت هذه الكرة النارية فتناثرت أجزاؤها ودخلت أسطوانات هوائية مبططة هي الكواكب تشتعل فيها النار وتبدو لنا من فوهاتها ؛ فكل ما نراه من وجوه القمر ، ومن كسوف وخسوف ، ناشئ إما من انسداد الفوهات انسداداً كلياً أو جزئياً ، أو مما للأسطوانات من حركة تجعل الفوهات تبدو حيناً وتغيب حيناً آخر . والأرض جسم أسطواني كذلك ، نسبة ارتفاعه إلى عرضه كنسبة ١ : ٣ ، ونحن نشغل قسمها الأعلى وهو منتفخ قليلاً ، ولبست تقوم على شيء بخلاف ما ارتأى طاليس ، إذ لا بد من سماء سفلى تجتازها الشمس والكواكب من الغرب لتعود فتظهر في الشرق ، كما أنها تجتاز السماء العليا من الشرق إلى الغرب ؛ فالأرض معلقة في وسط

السماء ، ثابتة في مكانها ، لأنها واقعة على مسافة واحدة من الأجرام السماوية ، فليس هناك ما يجعلها تتحرك إلى جهة دون أخرى ، ولأن النسبة المذكورة بين ارتفاعها وعرضها تكفل لها الاستقرار بذاتها .

ح - أما الأحياء فقد تولدت في الرطوبة بعد التبخر ، أي في طين البحر وهو مزاج من التراب والماء والهواء . فكانت في الأصل سمكا مغطى بقشر شائك ، حتى إذا ما بلغ بعضها أشده نزع إلى اليبس وعاش عليه ونفض عنه القشر . والإنسان لم يوجد أول ما وجد على ما نراه يوجد اليوم طفلاً عاجزاً عن توفير أسباب مماشه ، وإلا لكان انقرض ؛ ولكنه منقحر هو أيضاً من حيوانات مائية مختلفة عنه بالنوع ، حملته في بطنها زمناً طويلاً إلى أن نمت قواه وتم تكوينه ، فاستطاع أن يقف على اليابسة وأن يحفظ حياته بنفسه .

د - والتطور قانون عام : تخرج الأشياء من اللامتناهي ثم تنحل وتعود إليه ، ويتكرر الدور ، وهلم دواليك . منها ما « يشرق وينغرب في آجال بعيدة » هي الموالم التي لا تحصى ؛ ومنها ما يتكون ويفسد في أوقات قصيرة « ويموض بمضها البمض على صر الزمان » هي الجزئيات ، مثل الحرارة تشرب ماء الأرض فيرد البخار هذا الماء للأرض مطراً ، وهكذا إلى نهاية الدور . فالحركة دائمة ، والموجودات متغيرة ، والمادة اللامتناهية باقية غير حادثة ولا مندثرة .

ه - فانكسيمندريس يفسر تكوين الأشياء تفسيراً آلياً ، أي بمجرد اجتماع عناصر مادية وافتراقها بتأثير الحركة دون علة فاعلية متميزة ودون غائية . وهو في تصوره لهذا التكوين يكاد يقترب من تصور غير واحد من العلماء المحدثين (لابلاس مثلاً) ويكاد يقول بمذهب التطور في عالم الحياة ، بل يكاد يقول بقانون الجاذبية لولا أن رأيه يرجع - على حد تعبير أرسطو - إلى أن الأرض المستقرة في مركز العالم تشبه رجلاً يهلك جوعاً لأنه لا يجد سبباً يحمله على الأكل من طبق دون آخر من أطباق تحيط به على مسافة واحدة . وانكسيمندريس يمد الوجود إلى غير حد في المسكان وفي الزمان ، فيقول بموالم لا تحصى ، وبدور عام يتكرر إلى ما لا نهاية ، والقول الأول وليد الخيلة تأبى أن تتمثل حداً للمادة وخلاء ليس فيه شيء . والقول الثاني قديم لعله نشأ من ملاحظة اطراد حركات الأفلاك ، وتأييد بتحول الأجسام بعضها إلى بعض ، وتداول الفصول ؛ وهو على كل حال يعني ضرورة مطلقة وقانوناً كلياً يسيطر على الوجود ، ويفسر كيف أن الوجود لم يبدأ ولن ينتهي - وهذه عقيدة شائعة بين فلاسفة اليونان يسميها الإسلاميون بالدهرية لقولها : إن الدهر دائر

لا أول له ولا آخر . غير أن انكسيمندريس ، مع إنكاره على طاليس أن يكون البدأ الأول شيئاً معيناً ، قد وضع مبادئ عديدة معينة هي هذه الأضداد الموجودة في اللامتناهي دون أن يبين أصلها . أليست هي المبادئ الحقيقية ؟ أو ليس اللامتناهي حالة اختلاطها وتعادلها ؟ فلا يصح أن يسمى مبدأ بالمعنى الذي فهمه طاليس أي ما منه تتكون الأشياء ، لكنه مبدأ باعتباره نقطة بداية التطور العام — وهذه نظرة علمية ؛ أما المسألة الفلسفية فما تزال قائمة .

## ١٥ — انكسيمانس ( ٥٨١ — ٥٢٤ ) :

١ — هو تلميذ انكسيمندريس ، وقد كان أقل منه توفيقاً في العلوم وأضيق خيالاً . عاد إلى رأى طاليس في الأرض فاعتقد أنها قرص مسطح قائم على قاعدة . وأنكر حركة الشمس ليلاً من تحتها ، واستبدل بها حركة جانبية حولها ، وعلل اختفاء الشمس من السماء إلى الصباح بأن جبالاً شاهقة تحجبها عن الأنظار من جهة الشمال ، أو بأنها أبعد عن الأرض في الليل منها في النهار — وقد كان مثل هذا القول معروفاً عند المصريين . واشتغل بالظواهر الجوية ، ولا يلوح أنه أفاد العلم من هذه الناحية .

ب — وعاد إلى موقف طاليس في مسألة المادة الأولى : فقال إنها شيء محسوس متجانس ، ولكن هذا الشيء هو الهواء ، وإن الهواء لا امتناه يحيط بالعالم ويحمل الأرض . ولسنا ندرى على وجه التحقيق السبب الذي حداه إلى إيفار الهواء . فقد يكون أن الهواء ألطف من الماء وأنه لا يفتقر مثله إلى قاعدة وأنه أسرع حركة وأوسع انتشاراً ، ومن ثمت أكثر تحميلاً للامتناهي . وقد يكون أن علة وحدة الحى النفس ، والنفس هواء ( ولفظ Psyché يعنى باليونانية النفس والنفس ) فالهواء نفس العالم وعلة وحدته . ومهما يكن السبب فالحق أن البدأ الأول عنده الهواء ، وأن الموجودات تحدث منه بالتكاثف والتخلخل ، فإن تخلخل الهواء ينتج النار وما يتصل بها من الظواهر الجوية النارية والكواكب ، وتكاثفه ينتج الرياح فالسحاب فالطر ، وتكاثف الماء ينتج التراب ( الطمي في الأنهر ) فالصخر .

ج — فانكسيمانس يستعيض عن اللامتناهي الذي هو مزاج من الأشياء جميعاً ، بشيء واحد هو الهواء ؛ وعن الحركة وما تحدثه من اجتماع وافتراق عارضين لأجزاء المادة ، بخاصيتين ملازميتين للهواء إذ يتكاثف ويتخلخل بذاته فيحدث الأشياء بأنواعها . وعلى ذلك فهو يفسر العالم بعلة واحدة تعمل على نحو آلى . وفي هذا التفسير تقدم كبير بالمذهب الآلى إلى الوحدة والبساطة .

٥ — فالدرسة اللطيفة إذ توجهت إلى العالم المحسوس تحاول معرفته بالملاحظة والاستدلال ،  
قد وضعت العلم الطبيعي . وهي إذ اعتبرت المادة قديمة حية أو متحركة بذاتها ، وتخيّلها تتحول  
إلى صور الوجود المختلفة بموجب ضرورة طبيعية قد وضعت الأحادية المادية المعروفة في الفلسفة  
الحديثة والتي ترد الأشياء إلى جوهر مادي واحد وتفسرها بتطور هذا الجوهر في الشكل  
والكم ليس غير . وبهذه النظرية سيقول أيضاً هرقليطس .

١١ — هرقليطس ( ٥٤٠ — ٤٧٥ ) :

١ — ولد في أفسوس من أسرة عريقة في الحسب . ولكنه زهد كل جاه وتوفر على  
التفكير . إلا أنه ظل أرسقراطياً بكل معنى الكلمة يمتد بنفسه ، ويباعد بينه وبين الناس ؛  
يحقر المامة ومعتقداتها الدينية ، وعباداتها السخيفة ، ومعارفها التقليدية ؛ وينقم من  
هوميروس وهزود أنهما بثا فيها الخرافات والأضاليل ؛ ويستخرج من حكمها السياسي  
الشواهد على جهلها وعبثها ، فشبهها تارة بالأطفال ، وأخرى بالكلاب ، وثالثة بالخير . بل  
إن كبرياءه تمدى المامة إلى العلماء ، فكان يزدري العلم الجزئي « الذي لا يتقف العقل » وينهى  
على فيثاغوراس واكسانوفان اشتغالهما به ؛ فلم يحسب ولم يرسم ولم يجز التجارب ، ولكنه كان  
يمتد العلم الجدير به التفكير العميق في المعاني السكوية يخلع عليها أسلوباً فخماً مبهماً كثير  
الرض والتشبيه حتى لقب بالفامض ؛ وقد قال هو نفسه في أسلوبه « إنه لا يفصح عن الفكر  
ولا يخفيه ، ولكنه يشير إليه » . وإن الشذرات المائة والثلاثين التي بقيت لنا من كتابه  
تندل على ذلك دلالة كافية . غير أن ازدرائه العلم الجزئي تركه جاهلاً بالطبيعة جهلاً فاضحاً ،  
وهبط به إلى صف العامة ، فقد اعتقد مثلاً أن غروب الشمس انطفاؤها في المساء ، وأنها  
تتجدد كل يوم ، وأن قطرها قدم واحدة كما يبدو للبصر ، وغير ذلك من الأوهام . أما فلسفته  
فعميقة قوية ، وهي التي خلدت اسمه ، وكان لها أثر بعيد .

ب — « الأشياء في تغير متصل » : هذا قوله الأكبر وما يخص مذهبه . وهو يمثل له  
بصورتين ، الواحدة جريان الماء فيقول : « أنت لا تنزل النهر الواحد مرتين ، فإن مياهها  
جديدة تجري من حولك أبداً » والصورة الأخرى اضطرام النار ، وهي أحب لديه من الأولى  
لأن النار أسرع حركة وأدل على التغير ، ولأنه يرى في النار المبدأ الأول الذي تصدر عنه الأشياء  
وترجع إليه . ولولا التغير لم يكن شيء ، فإن الاستقرار موت وعدم . والتغير صراع بين  
الأضداد ليحل بعضها محل بعض « والشقاق أبو الأشياء وملكها » : لولا المرض لما

اشتبهينا الصحة ، ولولا العمل لما نممنا بالراحة ، ولولا الخطر لما كانت الشجاعة ، ولولا الشر لما كان الخير . « أليست النار تحيا موت الهواء ، والهواء يحيا موت النار ، والماء يحيا موت التراب ، والتراب يحيا موت الماء ، والحيوان يحيا موت النبات ، والإنسان يحيا موت الاثنين ؟ » فالوجود موت يتلاشى ، والموت وجود يزول ؛ كذلك الخير شر يتلاشى ، والشر خير يزول . فالخير والشر ، والكون والفساد ، أمور تتلازم وتفسج في النظام المصم ، بحيث يتمتع تمييز خصائص ثابتة للأشياء : « ماء البحر أنقى وأكدر ماء ، يشربه السمك ولا يستسيغه الإنسان ؛ هو نافع للأول ، ضار بالثاني . ونحن نزل النهر ولا نزل ( من حيث أن مياهه تتجدد بلا انقطاع ) ونحن موجودون وغير موجودين ( من حيث أن الفناء يذب فينا في كل لحظة ) » فكل شيء هو كذا وليس كذا ، موجود وغير موجود .

— قلنا إنه يرى في النار المبدأ الأول الذي تصدر عنه الأشياء وترجع إليه —  
لا النار التي ندركها بالحواس ، بل نار إلهية لطيفة للغاية لأثيرية ، نسمة حارة حية عاقلة أزلية أبدية هي حياة العالم وقانونه ( لوغوس ) — يعتمها وهن فتصير ناراً محسوسة ، ويتكاثف بعض النار فيصير بحراً ، ويتكاثف بعض البحر فيصير أرضاً . وترتفع من الأرض والبحر أبخرة رطبة تتراكم سحباً ، فتلتهب وتنقذ منها البروق وتمود ناراً ، أو تنطفئ هذه السحب فتكون العاصفة وتمود النار إلى البحر . ويرجع الدور . فالتمغير يجري أبداً في طريقين متعارضين : طريق إلى أسفل ، وطريق إلى أعلا ، مع بقاء كمية المادة الأولى أو النار واحدة ومن تقابل هذين التيارين يتولد النبات والحيوان على وجه الأرض . غير أن النار تخلص شيئاً فشيئاً مما تحولت إليه ، فيأتي وقت لا يبقى فيه سوى النار ، وهذا هو الدور التام أو « السنة الكبرى »<sup>(١)</sup> تتكرر إلى غير نهاية بموجب قانون ذاتي ضروري ( لوغوس ) .  
« فالبدالة متصلة من الأشياء إلى النار ، ومن النار إلى الأشياء ، كما يستبدل الذهب بالسلع ، وتستبدل السلع بالذهب » . « وهذا العالم لم يصنعه أحد من الآلهة أو البشر ، ولكنه كان أبداً وهو كائن وسيكون ناراً حية تستمر بمقدار وتنطق بمقدار » . هذه النار هي الله « والله نهار وليل ، شتاء وصيف ، حرب وسلم ، وفرة وقلة ، يتخذ صوراً مختلفة كالنار المطرة تسمى بأمم المطر الذي يفوح منها » . أما النفس الإنسانية فهي بخار حار — والحرارة ضرورية

(١) وتسمى بالكور : « إن للفلك وأشخاصه ... أدواراً كثيرة ... ولأدوارها كور ... أما الأكوار فهي استثنائاتها في أدوارها وعوقفها إلى مواضعها مرة بعد أخرى » رسائل إخوان الصفا طبعة القاهرة ١٩٢٨ ج ٣ ص ٢٤٣ — ٢٤٤ .

للنهي — هي قبس من النار الإلهية تدبر الجسم كما تدبر النار العالم ، فيجب عليها أن تعلم قانونها الذي هو القانون السكلي ، وأن تعمل به فلا تتشبث بالجسم ومطالبه ، بل تضع ذاتها في التيار الماس ، وتقمع الشهوة لأن الشهوة تؤكد للشخصية ، والشخصية انتقاض على القانون الطبيعي ومعارضة للتغير . والدين الحلق مطابقة الفكر الفردي للقانون السكلي (لوغوس) والفناء في النار العالمة .

٥ — فهرقليطس يقول بوحدة الوجود مثل فلاسفة ملطية ، ويمتاز بشموره القوي بالتغير ، وأن الفكرتين لتستتبعان الشك حتماً ؛ فوحدة الوجود تعني أن شيئاً واحداً بعينه هو الموجود ، وأن ما عندها مظاهر وظواهر ؛ والتغير يعني أن كل موجود جزئي فهو كذا وليس كذا في آن واحد ، أو هو نقطة تتلاقى عندها الأضداد وتتنازعها ، فيمتنع وصفه بخصائص دأمة ضرورية ، ويمتنع العلم . فلا عجب أن يقوم هرقليطس أتباع من السوفسطائيين يذهبون في الشك إلى أقصى حد ، ولو أنه هو لم يكن يقصد إلى هذه النتيجة ، فإنه إذ قال باللوغوس (١) أراد أن يضع حقيقة مطلقة فوق التغير المحسوس ، وعاملاً يقينياً في الجوهر الأوحده ، وفي العقل الإنساني الذي يدركه . ولكن تاريخ الفلسفة يعلمنا أن منطلق المذهب أقوى من مقاصد صاحب المذهب ، فهرقليطس ، سواء أراد أو لم يرد ، هو الجد الأول للشك في الفلسفة اليونانية .

(١)

---

(١) هو أول من قال به . وسيكون لهذه النظرية تاريخ . سيصطنعها الرواقيون وهم مجددو مذهبه . وسيصطنعها فيلون اليهودي . وسيرى بعض أوائل المفكرين المسيحيين أنها أقرب ما تكون إلى عقيدة « الكلمة » أو المسيح ، فيقولون إن هرقليطس كان مسيحياً قبل المسيح . يقول القديس يوحنا في مفتتح إنجيله : « في البدء كان الكلمة (لوغوس) ... كل به كوّن وبغيره لم يكوّن شيء مما كوّن فيه كانت الحياة ... » ولكن يوحنا يقول : « ... والكلمة كان عند الله وكان الكلمة الله » . فلا ينبغي أن يذهب اشتراك اللفظ بما بين النظريتين من فارق عميق : فإن هرقليطس يقصد قانوناً ذاتياً للعالم هو تهميم الاستقراء ، والمسيحية تقصد إلهاً مفارقاً للعالم فانلاً وتعقله « كلمته » .

## الفصل الثاني

### الفيثاغوريون

#### أو نشأة العلم الرياضي

١٢ — فيثاغوراس وفرقته :

١ — نشأ فيثاغوراس ( ٥٧٢ — ٤٩٧ ) في ساموس ، وكانت جزيرة أيونية زاهرة بحريتها وتجارها وتقدم الفنون فيها . طوّف في أنحاء الشرق . ولما ناهز الأربمين قصد إلى إيطاليا الجنوبية ، وكان المهاجرون اليونان قد بلغوا فيها درجة عالية من المدنية والثقافة . ونزل ثغر أقرطونا حيث كانت مدرسة طبية شهيرة . وما لبث أن عرف بالعلم والفضل . فخطب إليه مجلس الشيوخ ، فيما يذكر ، أن يعظ الشعب ، ففعل ، فداع اسمه وأقبل عليه المريدون من مختلف مدن إيطاليا الجنوبية وصقلية ومن روما . فأنشأ فرقة دينية علمية تشبه الأورفية ، أو هي أخذت عنها ثم أثرت فيها . وكانت فرقته مفتوحة للرجال والنساء من اليونان والأجانب على السواء ، يمدش أعضاؤها في هفة وبساطة بموجب قانون ينص على اللبس والمأكل والصلاة والترتيل والدرس والرياضة البدنية . فكانوا منظمين تنظيمًا دقيقًا يسدعون بما يؤمنون غير ناظرين إلا إلى « أن المعلم قد قال » . وكان المعلم متشبعًا بماطفة دينية قوية ، ومقتنمًا بفكرة جلييلة هي أن المعلم وسيلة فعالة لتهديب الأخلاق وتقديس النفس ، فجعل من العلم رياضة دينية إلى جانب الشعائر ، ووجه تلاميذه هذه الوجهة ، فاشتغلوا بالرياضيات والفلك والموسيقى والطب وشرح هوميروس وهزود .

ب — وكان طبيعياً من هذه الجماعة المثقفة المتضامنة الرامية إلى الإصلاح في بلد حديث خلو من التقاليد كثير التقلبات الديموقراطية أن تفكر في السياسة وتميل إلى نظام أرسستقراطي يقر الأمور في نصابها ، فتؤثر من هذه الناحية أيضاً فيمن ينتمى إليها من الحكام والأهلين بل تتحول إلى هيئة سياسية وتتمولى الحكم بنفسها . وهذا ما حدث في أقرطونا وغيرها من المدن الإيطالية في ظروف لم تصل إلينا أخبارها . غير أن الشعب والأعيان المبعدين عن الحكم

لم يرضوا عن هذا الانقلاب ؛ وما زال الممارضون يعملون في الخفاء حتى تألبوا ذات يوم على الدار التي كان زعماء الفرقة مجتمعين فيها فأحرقوها ، ولم ينج من الفيثاغوريين سوى اثنين . أما فيثاغوراس فقد قيل إن حملات أعدائه كانت اضطرت له للهجرة ، وأنه مات قبل الثورة ؛ وقيل بل كان في أقرطونا ولكنه كان متغيباً عن مركز الجمعية يوم الحريق ، فاستطاع أن ينجو بنفسه . وشبت الثورات على أنصاره في مختلف المدن ، فقتلوا لها في مدينتي رجيوم وترنتا ، وعبر البحر إلى القارة اليونانية من خذل منهم . ولما تماظم شأن أثينا قدمها بعضهم فكان لهم أثر خطير في الفلسفة والعلوم . ثم تلاشت الجمعية في منتصف القرن الرابع ، ولم يبق منها سوى أفراد تناقلوا تعاليمها ، فكانوا حلقة الاتصال بين هذا العهد الأول وعهد ثان للجمعية بدأ في منتصف القرن الأول قبل الميلاد واستمر إلى القرن الرابع بعده .

ح — هذا ما يقال بالإجمال عن فيثاغوراس وفرقته . وقد فقدت مصنفاتهم وكل ما ينسب لفيثاغوراس من « أشعار ذهبية » ومن « كتب ثلاثة » ( المذهب والسياسة والطبيعي ) فهو منحول يرجع إلى العهد الثاني . كذلك الكتب المنزوة لتلاميذه الأولين ( وأشهرهم فيوللاوس ) منزهولة أو مشكوك فيها إلى حد كبير . أما أقوال الفيثاغورية الجديدة عن المدرسة القديمة ، فيجب أن تقابل بفاية الحذر لما فيها من ميل ظاهر إلى الغريب الشاذ ، ومن تأويل شخصي ، ومن أفكار وأمور لم تعرف إلا بعدها ، منها الأفلاطوني والرواق بل البوذي أيضاً وحتى هيروودوت ، وقد عاش في الأوساط الفيثاغورية في إيطاليا الجنوبية وصقلية بعد وفاة فيثاغوراس بنصف قرن ، يخلط في كلامه عنه وعن جمعيته . ذلك بأن مخيلة الأتباع والأنصار كانت قد تناولت فيثاغوراس ونسجت حوله الأساطير ، فقالوا إنه ابن أبولون أو هرمس ، ورووا عنه من الخوارق كل عجيب غريب . كذلك الجمعية يروى عنها أشياء كثيرة : أشهرها أنها كانت تحرم أكل الحيوان وبمض النبات ، ويقال إن هذا التحريم لم يكن مطلقاً ، ويذكر أنها كانت سرية يتعارف أفرادها بإشارات خاصة ، ويتمهدون بكتبان تعاليمها ، الديني منها والعامي ، وأنهم أعدموا واحداً منهم غرقاً لإفشائه سر هندسيا وليس ما يمنع من التصديق بهذه السرية ، لا سيما أن أرسطو نفسه ، إذ يتحدث عن المذهب لا يميز بين ما كان لفيثاغوراس فيه من نصيب وما كان لتلاميذه ، بل يذكرهم جملة بقوله : « الذين يدعون بالفيثاغوريين » أو « المدرسة الإيطالية » مما يدل على أن الجمعية كانت وحدة توارت وراءها شخصيات أفرادها حتى تسربت آراؤهم ومكتشفاتهم إلى الخارج فاندجت في الثقافة اليونانية خالصة من كل شخصية .

١٣ — مفاهيمهم :

١ - يذكر أن فيثاغوراس هو الذى وضع لفظ « فلسفة » إذ قال : « لست حكيمًا ، فإن الحكمة لا تضاف لغير الآلهة ، وما أنا إلا فيلسوف » أى محب للحكمة . وكان رياضياً وموسيقياً ؛ ولعل أهم آثاره فى هذا الباب أنه برهن على أن قوة الأصوات تابعة لطول الموجات الصوتية ، فبين أن الأنغام تقوم خصائصها بنسب عددية وترجم عنها بالأرقام ، فوضع الموسيقى علماً بمعنى الكلمة بإدخال الحساب عليها . ولا شك أن دراسة الفيثاغوريين للأعداد والأشكال والحركات والأصوات ، وما بينها من تقابل عجيب ، وما لها من قوانين ثابتة ، صرفت عقولهم إلى ما فى العالم من نظام وتناسب « فرأوا أن هذا العالم أشبه بهالم الأعداد منه بالماء أو النار أو التراب ، وقالوا إن مبادئ الأعداد هى عناصر الموجودات ، أو إن الموجودات أعداد ، وأن العالم عدد ونتم »<sup>(١)</sup> ، أو قالوا أيضاً « إن الأعداد نماذج تحاكيها الموجودات دون أن تكون هذه النماذج مفارقة لصورها »<sup>(٢)</sup> إلا فى الذهن . والقولان يرجعان إلى واحد مؤداه التوحيد بين عالم الموجودات وعالم الأعداد . وقد ساعد على هذا التصور أنهم لم يكونوا يتمثلون العدد مجموعاً حسابياً ، بل مقداراً وشكلاً ، ولم يكونوا يرمزون له بالأرقام ، بل كانوا يصورونه بنقط على قدر ما فيه من آحاد ، ويرتبون هذه النقط فى شكل هندسى : فالواحد النقطة ، والاثنان الخط ، والثلاثة المثلث ، والأربعة المربع ، وهكذا ؛ وكانوا من ثمت يصفون الأعداد بالأشكال فيقولون الأعداد المثلثة والمربعة والمستطيلة ، أى التى تصور بنقط مرتبة بشكل مخصوص . تخلطوا بين الحساب والهندسة ، ومددوا فى المكان ما لا امتداد له ، وحولوا العدد أو الكمية المنفصلة إلى المقدار أو الكمية المتصلة . ثم لم يُجدِّهم ذلك شيئاً فى تفسير الطبيعة ، لأنهم إنما « أصابوا خصائص الجسم الرياضى لا خصائص الجسم الطبيعى ، ولم يفسروا الحركة والكون والفساد ، وهى أمور بادية فى العالم المحسوس ، ولم يبينوا علته ثقل التراب والماء ، وخفة النار ، وسائر الخصائص فى الأجسام المحسوسة ، ولكنهم ركبوا الأجسام الطبيعية من الأعداد ، أى أنهم ركبوا أشياء حاصلة على الثقل والخفة من أشياء ليس لها ثقل ولا خفة »<sup>(٣)</sup> .

(١) أرسطو ما بعد الطبيعة م ا ف ٥ .

(٢) المرجع المذكور م ا ف ٦ .

(٣) المرجع المذكور م ا ف ٨ .

ب - وهذا هو السبب في أنهم لم يضمنوا في العلم الطبيعي رأياً جديداً ، بل نقلوا عن أنكسيميندريس وبالأخص عن انكسيانس . فتصوروا العالم كائناً حياً - حيواناً كبيراً - يستوعب بالتنفس خلاء لا متناهيًا هو عبارة عن هواء غاية في اللطافة ضروري للفصل بين الأشياء ، ومنهها من أن متصل فتكون شيئاً واحداً<sup>(١)</sup> . وقالوا بموالم كثيرة ، ولكن في عدد متناه . وجملوا الأشياء تحدث بالتكاثف والتخلخل ، لا بتحول بعضها إلى بعض ، لأن الأعداد نظام ثابت منتجانس . وقالوا بالدور وعودة الأشياء هي بأنفسها في آجال طويلة ( « السنة الكبرى » ) إلى غير نهاية . ويروي في هذا الصدد أن أوديموس تلميذ أرسطو قال مخاطباً تلاميذه : « إذا صدقنا الفيثاغوريين فسيجيء يوم يجتمع ثانية في هذا المكان ، فتجلسون كما أنتم لتستمعوا إليّ ، وأتحدث أنا إليكم كما أفعل الآن » .

ج - أما النفس فقد وصلت إلينا عنهم أقوال متباينة فيها . فنحن نجد عند أفلاطون رأياً لبعضهم يقول إن النفس نوع من النغم ؛ ومعنى ذلك أن الحى مركب من كيفيات متضادة ( الحار والبارد واليابس والرطب ) والنغم توافق الأضداد وتناسبها ، بحيث تدوم الحياة ما دام هذا النغم وتقدم بانعدامه<sup>(٢)</sup> . وهذه من غير شك نظرية أطباء الفرقة ( أو نفر منهم ) صدروا فيها عن فكرتهم العامة ( « العالم عدد ونغم » ) وخالفوا أموراً جوهرية في مذهبهم : فإن النغم نتيجة توافق الأضداد ، فإذا كانت النفس نغماً ، لزم من جهة أن ليس لها وجود ذاتي - والفيثاغورية تؤمن بالخلود - ولزم من جهة أخرى أن ليس لها وجود سابق على عناصر البدن - والفيثاغورية تؤمن بالتناسخ<sup>(٣)</sup> . على أن أرسطو إذ يذكر هذه النظرية لا يمزوها للفيثاغوريين<sup>(٤)</sup> ولكنه يضيف إليهم صراحة قولين : الواحد أن النفس هي هذه الذرات المتطايرة في الهواء والتي تدق عن إدراك الحواس فلا تبصر إلا في شعاع الشمس وتتحرك دائماً حتى عند سكون الهواء - فكان أصحاب هذا الرأي أرادوا أن يفسروا الحركة الذاتية في الحيوان ، فاعتقدوا أن هذه الذرات المتحركة دائماً تدخل جسمه وتحركه . ولعلهم ظنوا أن هذا التصور يفسر أيضاً كون المولود يجد ساعة ميلاده نفساً تحمل فيه . وهم على كل حال يتابعون معاصريهم فيتصورون النفس مادية وإن جعلوها مادة لطيفة

(١) أرسطو : السماع الطبيعي م ٤ ف ٦ .

(٢) فيدون : ص ٨٥ ( هـ ) - ٨٦ ( د ) .

(٣) فيدون : ص ٩٢ ( ا ب ج ) .

(٤) كتاب النفس : م ا ف ٤ .

جداً . ويذهب القول الآخر إلى أن النفس هي المبدأ الذي تتحرك به هذه الذرات (١) وهو قول يخيل إلينا أنه رأيهم الحق ، وهو أرقى من القولين السابقين وجامع لهما ، بحيث تكون النفس عندهم مبدأ أو علة توافق الأضداد في البدن ، وعلة حركته جميعاً .

د - بمد الموت تهبط النفس إلى « الجحيم » تطهر بالمذاب ، ثم تعود إلى الأرض تنتمص جسماً بشرياً أو حيوانياً أو نباتياً ، ولا تزال مترددة بين الأرض والجحيم حتى يتم تطهيرها ، مثلما قالت الأورفية . ويروي أن فيثاغوراس كان يدعي أنه متجسد للمرة الخامسة ، وأنه يذكر حيواته السابقة . وعند الفيثاغوريين أيضاً أن أزمنة التتمص قد حددها الآلهة ، ونحن ملكهم ، فليس لنا أن نخالف النظام الذي وضعه بالانتحار ، أو يهلك الحيوان فيما عدا التضحية . وقد يابح أن نظرية التناسخ متمشية مع نظرية الدور تؤيدها وتفسرها فيما يختص بالأحياء ، ولكن الغاية من التناسخ الطهارة التامة والسعادة الدائمة فكيف نوفق بين هذا الدوام وبين الدور ؟

هـ - ولم تصل إلينا نصوص صريحة عن عقيدتهم في الألوهية . أما ما يذكر من أنهم كانوا يضمون « الواحد » فوق الأعداد والموجودات ، ويحملونه مصدرها جميعاً ، فتأويل أفلاطوني . وكل ما يمكن أن يقال إنهم طهروا الشرك الشمي من أدراجه ، ونزهوا الآلهة عما ألحقت بهم الخيلة العامة من نقائص ، وذلك بتأويل الأساطير تأويلاً مجازياً . ( ٩٤ د ) .

## ١٤ - علومهم :

١ - وإذا انتقلنا من تصورهم للمسائل الكلية إلى آرائهم في العلوم الجزئية ، وجدنا فكرتهم الأساسية مهيمنة عليها كذلك . وقد صرت بنا الإشارة إلى أطباهم ، فنقول الآن إنهم أثروا أكبر تأثير في مدرسة أقروطونا وحولوها إلى مذهبهم . بنوا الطب على تناسب الأضداد ، فقالوا إن مبدأ الحياة الحار ملطفاً بالبارد أي بالهواء الخارجي يُجذب بالشمق ويُدفع بالزفير ، فإذا اختلت النسبة بينهما كان المرض ، وإذا زاد الاختلال كان الموت . فالحياة والصحة تناسب وتتناسق ، والمرض والموت اختلال التناسب أي إفراط أو تفريط بالإضافة إلى الحد الملائم ، والتطبيب حفظ التناسب أو إعادته . وطبقوا هذا الرأي تطبيقاً عاماً فقالوا مثلاً إن خير مناخ هو مناخ المنطقة المعتدلة أي التوسطة بين الحار والبارد ، وهكذا .

(١) كتاب النفس م ١ ف ٢ .

ومن نوابضهم في هذا الفن القميون زعيم مدرسة أقروطونا . وما يذكر له قوله : ليست النفس في القلب ( وكان هذا اعتقاد القدماء ) وإنما هي في الدماغ ، والدماغ مركز التفكير ، تصل إليه التأثيرات الواقعة على أعضاء الحواس خلال قنوات دقيقة . ويقال إنه أثبت رأيه بالتجربة ، فبين بالتشريح أن كل اضطراب في المخ يفسد الوظائف الحاسة .

ب - وامتازوا في علم الفلك ، وصدروا فيه أيضاً عن اعتباراتهم الرياضية ، فمضوا بصورون العالم كما شاءت لهم غير حافلين بالواقع ، كأنما كانت مهمتهم تكوين العالم لا تمثيله وتفسيره « فقالوا مثلاً إن العدد الكامل هو العشرة لأنه مؤلف من الأعداد جميعاً وحاصل على خصائصها جميعاً ، فيلزم أن الأجرام السماوية المتحركة عشرة ( لأن العالم كامل وحاصل على خصائص الكامل ) . ولكن لما كان المعروف المنظور منها تسعة فقط ( ٦٤ ح ) فقد وضوا أرضاً غير منظورة مقابلة لأرضنا إلى أسفل ليكملوا العدد عشرة »<sup>(١)</sup> . كذلك ذهبوا إلى أن مركز العالم يجب أن يكون مضيئاً بذاته ، لأن الضوء خير من الظلمة ، ويجب أن يكون ساكناً ، لأن السكون خير من الحركة : فليست الأرض مركز العالم وهي مظلمة وفيها نقائص كثيرة ؛ ولكنه « نار مركزية » غير منظورة لأنها واقعة هي أيضاً إلى أسفل أرضنا ، والمأهول من الأرض في اعتقادهم نصفها الأعلى . ولم يقتنعوا أن يمينوا الكل من النار المركزية والأرض الأخرى شأناً في نظام العالم : النار المركزية تمد الشمس بحرارتها ، فتمكس الشمس الحرارة على الأرضين وعلى القمر . والأرض الأخرى تفسر الكسوف والخسوف بتوسطها بين النار المركزية وبين القمر ، أو الشمس<sup>(٢)</sup> . ومهما يكن من قيمة استدلالهم ، فإن تنحيهم الأرض عن مركز العالم كان ثورة على التصور القديم . وثمة ثورة أخرى هي قولهم بكروية الأرض ؛ ولم يبلغ إلينا سبب هذا القول ، وقد يكون أن الدائرة خير الأشكال لسكال انتظام جميع أجزائها بالنسبة للمركز ، على ما هو معروف عنهم . وبديهي أن الخيال والمأطفة الدينية كانا يجدان غذاءً في التصورات التي يوحيان بها ، فالفيثاغوريون إذ اخترعوا النار المركزية ووضعوها في وسط العالم ، مجدوها وأسموها أم الآلهة ، وقلمة تروس ، والهيكل ، وموقد العالم ، والمصدر الأول لكل حياة وكل حركة . على أن المتأخرين منهم لم يترددوا في المدول عن النار المركزية والأرض الأخرى بمد أن بلغ الإسكندر الهند ولم تظهر هذه ولا تلك . وقام واحد منهم هو أرسطرخوس من علماء القرن الثالث فاستبدل الشمس بالنار

(١) أرسطو : ما بعد الطبيعة م ا ف ٥ ، وكتاب السماء م ٢ ف ١٣ .

(٢) أرسطو : كتاب السماء م ٢ ف ١٣ .

المركزية ، فتم له الرأي الممول عليه الآن ، ولكنه لم يصادف قبولا عند أهل زمانه ، فبقى في بطون الكتب إلى أن قرأه كوبرنيكوس في شيشرون فوضع نظريته .

ح — ومن المأثور عنهم قولهم إن الحركات الأفلاك نفحات<sup>(١)</sup> . وحجتهم في ذلك أن الجسم إذا تحرك بشيء من السرعة أحدث صوتاً هو صوت اهتزاز الهواء أو الأثير ، فلا بد أن يكون لحركات الأفلاك في الأثير السوى أصوات . وتتفاوت سرعة الأفلاك بتفاوت مسافتها ، كما تتفاوت في العُود سرعة الاهتزازات بتفاوت طول الأوتار ، فلا بد أن يكون في السماء ألحان كألحان العود ، وإن كنا لا نشمر بها فذلك لأننا نحسها باتصال ، والصوت لا يشمر به إلا بالإضافة إلى السكوت . ولا يبعد أنهم كانوا يخرجون من هذا القول إلى مثل ما خرج إليه إخوان الصفاء حيث قالوا : « إذا تفكر ذو اللب تبين له أن في نفحات تلك الحركات لذة وسروراً مثل ما في نفحات أوتار الميدان في هذا العالم . فمند ذلك تشوقت نفسه إلى الصعود إلى هناك والاستماع لها والنظر إليها . فاجتهد يا أخي في تصفية نفسك وتخليصها من بجزر الميول وأسر الطبيعة وعمودية الشهوات الجسمانية ، فإن هذه هي الممانعة لها من الصمود إلى هناك بمد الموت »<sup>(٢)</sup> .

د — فالفيثاغورية نهضة عظيمة متعددة الوجوه . هي نحلة دينية كانت أصدق نظراً في الدين من الأرفية . وهي مذهب فلسفي يمد أول محاولة الارتفاع عن المادة التي وقف عندها فلاسفة أبونية ، ولفهم العالم بقوانين واضحة وأعداد معينة . وهي مدرسة علمية عنيت بالرياضة والموسيقى والفلك والطب ، وعرفت بضع قضايا حسابية وهندسية ، ووضعت في الهندسة ألفاظاً اصطلاحية . وهي هيئة سياسية ترمي إلى إقرار النظام في المدينة على أيدي الفلاسفة .

(١) أرسطو : كتاب السماء م ٢ ف ٩ .

(٢) الجزء الأول ص ١٥٨ و ص ١٦٨ باختصار .

## الفصل الثالث

### الإيليون

أو نشأة ما بعد الطبيعة

١٥ - أكسانوفان (٥٧٠ - ٤٨٠) :

١ - بارمنيدس هو المؤسس الحقيقي للمدرسة الإيلية ( والنسبة إلى إيليا مدينة بناها الأيونيون الحاربون من وجه الفرس على الشاطئ الغربي في إيطاليا الجنوبية حوالي سنة ٥٤٠ ) واسكن كان قد سبقه فيها أكسانوفان الذي أعلن أصل المذهب ، ثم وضعه هو في صورته الكاملة . وجاء بعده زينون ، فنصب نفسه للدفاع عنه . ثم مليسوس أدخل عليه بعض التمديل دون أن يمس جوهره ؛ وكلهم « يقولون إن العالم موجود واحد ، وطبيعة واحدة . يقولون هذا إلا كالمطبيعين الذين يفرضون موجوداً واحداً ( ماء أو هواء أو ناراً ) ويستخرجون منه كثرة الأشياء بالحركة والتغير المرضي ( اجتماع وانفصال أو تكاثف وتخلخل ) بل يقولون إن العالم ساكن »<sup>(١)</sup> فهم ينكرون الكثرة والحركة .

ب - ولد أكسانوفان في قولوفون من أعمال أيونيا بالقرب من أفسسوس . ويرجع أن غزوة الفرس لبلاده هي التي حملته على مغادرتها . فطوف في أنحاء العالم اليوناني سنين عديدة إلى أن بلغ صقلية ، ثم انتقل إلى إيطاليا الجنوبية واستقر في إيليا . كان شاعراً حكيماً شريف النفس حر الفكر مر النقد : قال ساخراً من تكريم الناس للمصارعين « إن حكمتنا خير وأبقى من قوة الرجال والحيل » وقال متهاكماً على فيثاغوراس لاعتقاده بالتناسخ : « إنه مر ذات يوم برجل يضرب كلباً ، فأخذته الشفقة ، فصاح وهو ينتحب : أمسك عن ضربه يا هذا ، إنها نفس صديقي لي ، لقد عرفته من صوته » .

ج - ويقال بالإجمال إنه ارتفع بمقله فوق حكايات قدماء الشعراء ، وصرف جهده إلى القول بنظام أسى من التجربة المحسوسة ، ومن الرأي العام الجاهل المتقلب . وأهم أقواله

(١) أرسطو : ما بعد الطبيعة م ا ف ه .

« إن الناس هم الذين استحدثوا الآلهة وأضافوا إليهم عواطفهم وصوتهم وهيئتهم ، فالأحباش يقولون عن آلهتهم إنهم سود فطس الأنوف ، ويقول أهل تراقية إن آلهتهم زرق السيون حمر الشمور ، ولو استطلعت الفيرة والخيل لصورت الآلهة على مثالها . وقد وصفهم هوميروس وهزيود بما هو عند الناس موضوع تحقير وملامة . ألا إنه لا يوجد غير إله واحد ، أرفع الموجودات السماوية والأرضية ، ليس مركباً على هيئتنا ، ولا مفكراً مثل تفكيرنا ولا متحركاً ولكنه ثابت ، كله بصر ، وكله فكر ، وكله سمع ، يحرك الشكل بقوة عقله وبلا عناء . هذا كلام قورى في التنزيه والتوحيد لم يمهده له مثيل في اليونان . غير أن أرسطو يذكر « أنه نظر إلى مجموع العالم وقال إن الأشياء جميعاً عالم واحد ، ودعا هذا العالم الله ، ولم يقل شيئاً واضحاً ، ولم يبين إن كان العالم عنده واحداً من حيث الصورة أو من حيث المادة » (١) . فكأنه كان حاولياً ، أو كأنه أخذ وحدة الوجود عن فلاسفة وطنه أيونية ، وتصور الوجود تصوراً روحياً . وعلى أي حال فلمبارته قيمتها في نفسها ، وهي جديرة أن تجمل منه واضع « العلم الإلهي » .

١٦ - بارمنيديس ( ٥٤٠ - ؟ ) :

١ - ولد في إيليا « ويقال إنه تنمذ لا كسانوفان » (٢) . ومن المحقق أنه تأثر به فأمن بوحدة الوجود . وضع كتابه « في الطبيعة » شعراً فكان أول من نظم الشعر في الفلسفة . وكتابه قسمان : الأول في الحقيقة ، أي الفلسفة ، والثاني في الظن ، أي العلم الطبيعي ، فإن المعرفة عنده نوعان : عقلية وهي ثابتة كاملة ، وظنية وهي قائمة على العرف وظواهر الحواس . فالحكيم يأخذ بالأولى ويعول عليها كل التمويل ، ثم يلم بالأخرى ليقف على مخاطرها ويحاربها بكل قواه .

ب - والحقيقة الأولى هي « إن الوجود موجود ، ولا يمكن ألا يكون موجوداً » . أما اللاوجود « فلا يدرك إذ أنه مستحيل لا يتحقق أبداً ، ولا يعبر عنه بالقول ؛ فلم يبق غير

(١) أرسطو : ما بعد الطبيعة م ا ف ه ص ٩٨٦ ع ب س ٢٠ - ٢٤ ، وهذا النص دليل على أن كتاب « في أ كسانوفان ومليسيوس وغورغياس » المنسوب إلى أرسطو منحول ، لأنه يضيف إلى شاعرنا جدلاً دقيقاً في التناهي واللامتناهي ، والحركة والسكون ، لو صح لنقض العبارة المذكورة فوق ، فضلاً عن أنه بعيد من مزاج الشاعر . والكتاب لأرسطوطالي من أهل القرن الأول الميلاد .  
(٢) أرسطو : المرجع المتقدم .

طريق واحد هو أن نضع الوجود ، وأن نقول إنه موجود . « والفكر قائم على الوجود ، ولو لا الوجود لما وجد الفكر ، لأن شيئاً لا يوجد وإن يوجد ما خلا الوجود » . ولما كان الوجود موجوداً ، فهو قديم بالضرورة إذ يمتنع أن يحدث من اللاوجود ، ويمتنع أن يرجع حدوثه صرحح في وقت دون آخر . فليس للوجود ماض ولا مستقبل ، ولكنه في حاضر لا يزول . وعلى ذلك « يمتنع الكون ، ولا يتصور الفساد » وينتفي التغير . والوجود والواحد متكافئان ، فيلزم أن الوجود واحد فقط متجانس « مملوء كله وجوداً » . ويلزم أنه ثابت ساكن في حدوده « مقيم كله في نفسه » إذ ليس خارج الوجود ما منه يتحرك ، وما إليه يسير . وهو كامل متناهٍ أى معين « لا ينقصه شيء » إذ ليس خارج الوجود وجود يكتسب ، وهو تام التناهي والتعيين في جميع جهاته ، إذ لا يمكن أن يكون بمضه أقوى أو أضعف من بمض ؛ مثله مثل كرة تامة الاستدارة ، متوازنة في جميع نقطها . وبالجملة لما اقتنع بارمنيديس بأن العالم واحد ، رأى أن ما يطلق عليه بهذا الاعتبار هو أنه وجود . وتأمل معنى الوجود مجرداً ومفرغاً من كل مفهوم سوى هذا المفهوم البسيط الهزيل الذى يعنى الوجود بالإطلاق ، فأدرك أن الوجود واحد قديم ثابت كامل ، وأن هذه الصفات لازمة من معنى الوجود . فآثر هذا اليقين العقلى ، وأنكر الكثرة والتغير ، واعتبرهما وهماً وظناً : أليس التغير يعنى أن الموجود كان موجوداً ولم يكن موجوداً ( ما صار إليه ) وأنه باقٍ في الوجود ، ومع ذلك فهو ليس موجوداً ( على ما كان ) ؟ أو ليست الكثرة تعنى أن كل وحدة من وحداتها هى كذا أى وجود معين ، وليست كذا أى ليست وجوداً ؟ إذ أن قولنا عن شيء إنه ليس كذا ، معناه أن هذا الشيء حاصل على اللاوجود ، وهذا معنى غير معقول .

ح - « ولكنه اضطر أن يتبع الظواهر المحسوسة ، وقال إن الأشياء واحد في العقل ، كثير في الحس »<sup>(١)</sup> فانتقل من يقين العقل إلى ظن الحواس ، ومن الفلسفة إلى العلم الطبيعى يحاول أن يفسر الظواهر ، وأن يورد ما يبلغ إليه الظن فيها ، فقبل الوجود واللاوجود فى آن واحد ، وهو يعلم أن هذا طريق معارض للعقل ، ولكنه يعلم أيضاً أنه أهون عند العقل من طريق الذين يمتقدون « أن الوجود واللاوجود شيء واحد ، ثم إنهما ليسا شيئاً واحداً » : يريد فيما يابح مماصره هرقليطس . فتصور بارمنيديس الوجود الكامل غير المنقسم كرة مادية ، كما تصور الفيثاغوريون المدد ممتداً ، وشرع يسرد آراء تذكر بقصص هزيود وأقوال

(١) أرسطو : ما بعد الطبيعة م ١ ف ٥ .

انكسيميندريس وانكسيانس . فهل كان جاداً في هذا القسم الثاني من الكتاب ، مغلوباً على أمره كما يقول أرسطو أم إنه بجمعه بين خيال هزبوع وعلم الأيونيين أراد أن يسخر من العلم الطبيعي ومن أصحابه ، وأن يؤيد بالخلف القسم الأول فيبين أن العالم المحسوس لا يفسر بغير ما يقتضيه التنفير من اجتماع الوجود واللاوجود ، وأن هذا الاجتماع غير معقول ، وأن التنفير وهم ؟

٥ - ومهما يكن من هذه المسألة ، ومن تشخيص الوجود في كرة مادية متصلة هي مع ذلك واحدة غير منقسمة ، فإن ميزة بارمنيدس هي أنه فيلسوف الوجود المحض . تجاوز عالم الظواهر ، وعالم الأعداد والأشكال ، وبلغ إلى الموضوع الأول للعقل وهو الوجود . ولقد بهره معنى الوجود ، فلم يمد يري غير أمر واحد هو « أن ما هو موجود فهو موجود ولا يمكن ألا يوجد » وأن « الوجود موجود واللاوجود ليس موجوداً ، ولا يخرج من هذه الفكرة أبداً » . وكان أول فيلسوف جرد مبدأ الذاتية<sup>(١)</sup> ومبدأ عدم التناقض ( ٧١ ج ) وأعلنهما صراحة ، وجعل منهما أساس العقل الذي لا يتزعزع ، في نفس الوقت الذي كان هرقليلطس يهوى فيه على هذا الأساس بكل قوته . ولئن لم يظن بارمنيدس إلى أن الوجود والواحد يقالان على أنحاء عدة ، ولم يفرق بين معانيهما المختلفة ، فمذره أن هذه المعاني لم تكن قد تميزت بمد ، وهي لن تميز إلا على يد أرسطو<sup>(٢)</sup> . وحسبه فخراً أنه ارتفع إلى مبادئ الوجود ومبادئ العقل بقوة لم يسبق إليها ، فأنشأ الفلسفة الأولى أو الميتافيزيقا ، واستحق أن يدعوه أفلاطون « بارمنيدس الكبير » .

## ١٧ - زينون الإيلي ( ٤٩٠ - ٤٣٠ ) :

١ - هو تلميذ بارمنيدس . نكاد لا نعرف شيئاً عن حياته سوى أنه اشتهر بطاغية مدينته ، فأنكشف أمره ، فأذيق عذاباً أليماً احتمله بثبات عظيم حتى الموت . وإذا أخذنا برواية أفلاطون<sup>(٣)</sup> قلنا إنه وضع كتاباً في شبابه قصد به إلى تأييد مذهب معلمه ضد الذين سخروا منه وحاولوا أن يبينوا أن القول بالوحدة يستتبع نتائج مضحكة ومناقضة له ( وهؤلاء هم الفيثاغوريون الذين يؤلفون العالم من أعداد أي من وحدات منفصلة ) . فحارب أصحاب

(١) « كل موجود فهو موجود » .

(٢) انظر فيما بعد عدد ٦٠ ب ؛ ٧١ ب .

(٣) محاوره « بارمنيدس » ص ١٢٧ (١) - ١٢٨ (ج) .

الكثرة بأن ألزهم الحالات ، وبين أن لذهم نتائج هي أدعى للضحك . فهو قد نرج منها جادليا بحثاً يقوم على برهان الخلف ، ويرى إلى إغغام الخصم . ولم يصل إلينا من العاومات ما يكفي لتسكين فكرة مضبوطة عن كتابه وترتيب أقواله ، ولكن أرسطو أورد بعض حججه في امتناع الكثرة والحركة (١) .

ب - أما الكثرة فله عليها حجج أربع : يقول لا تخلو الكثرة أن تكون إما كثرة مقادير ممتدة في المكان ، أو كثرة آحاد ( أعداد ) غير ممتدة ولا متجزئة . والحجة الأولى تنظر في الفرض الأول ، ومؤداها أن المقدار قابل للقسمة بالطبع ، فيمكن قسمة أى مقدار إلى جزئين ، ثم إلى جزئين ، وهكذا دون أن تنتهى القسمة إلى آحاد غير متجزئة ، لأن مثل هذه الآحاد لا يؤلف مقادراً منقسماً ؛ وإذن يكون المقدار المحدود المتناهي حاوياً أجزاءً حقيقية غير متناهية المدد ، وهذا خلف . — الحجة الثانية تنظر في الفرض الثانى ، وهو أن الكثرة مكونة من آحاد غير متجزئة . فتقول إن هذه الآحاد متناهية المدد ، لأن الكثرة إن كانت حقيقية كانت معينة ؛ وهذه الآحاد منفصلة ، وإلا اختلط بعضها مع بعض ؛ وهى مفصولة حتماً بأوساط ، وهذه الأوساط بأوساط ، وهكذا إلى ما لانهاية ، مما يناقض المفروض . فالكثرة بنوعها غير حقيقية . — والحجة الثالثة تدعى أنه إذا كانت الكثرة حقيقية ، كان كل واحد من آحادها يشغل مكاناً حقيقياً ؛ ولكن هذا المكان يجب أن يكون هو أيضاً فى مكان ، وهكذا إلى غير نهاية . فالكثرة غير حقيقية . — والحجة الرابعة تذهب إلى أنه إذا كانت الكثرة حقيقية وجب أن يقابل النسبة العددية بين كيلة الذرة وحببة الذرة ، وجزء على عشرة آلاف من الحبة ، نفس النسبة بين الأصوات الحادثة من سقوطها إلى الأرض ؛ ولكن الواقع أن لا ، وإذن ليست الكثرة حقيقية .

ج - وله حجج أربع كذلك ضد الحركة : الأولى تسمى حجة القسمة الثنائية ، وهى مأخوذة من فرض المقدار مركباً من أجزاء غير متناهية ، ونقول إن الجسم المتحرك لن يبلغ إلى غايته إلا أن يقطع أولاً نصف المسافة إليها ، ونصف النصف ، وهكذا إلى ما لانهاية ؛ ولما كان اجتياز اللانهاية ممتعماً ، كانت الحركة ممتعة . — والحجة الثانية تمثيل للأولى وتسمى حجة أخيل ، مؤداها أنه إذا فرضنا أخيل « ذا القدمين الخفيفتين » يسابق سلاحفاعة وهى أبطأ الحيوان ، وأن هذه السلاحفاعة متقدمة عليه مسافة قصيرة ، وأنهما يبدأان الحركة

(١) السماع الطبيعى م ٤ ف ١ و ٢ — م ٦ ف ٢ و ٩ — ما بعد الطبيعة م ٣ ف ٤ .

في وقت واحد ، فإن أخيل لن يدرك السالحفة إلا أن يقطع المسافة الأولى الفاصلة بينهما ، ثم المسافة الثانية ، وهكذا إلى ما لا نهاية . — والحجة الثالثة تسمى حجة السهم ، وهي قائمة على أن الزمان مؤلف من آتات غير متجزئة ، وترجع إلى أنه لما كان الشيء في مكان مساوٍ له ، كان السهم في صروقه يشغل في كل آن من آتات الزمان مكاناً مساوياً له ، فهو إذن لا يبارح المكان الذي يشغله في الآن غير المتجزء ، أي أنه ساكن غير متحرك ، وهكذا في كل آن . — والحجة الرابعة تسمى حجة الملعب ، وتقوم كذلك على فرض الزمان مؤلفاً من آتات غير متجزئة ، والمكان مركباً من نقط غير منقسمة ، وتلخص كما يلي : لنفرض ثلاثة مجاميع كل منها مؤلف من أربع وحدات أو نقط ، والثلاثة متوازية في ملعب ، أحدها ← . . . . . يشغل نصف الملعب إلى اليمين ، وآخر يشغل نصفه إلى اليسار ، والثالث في → . . . . . الوسط . ولنفرض الأول والثاني يتحركان بسرعة واحدة كل منهما إلى الجهة . . . . . المقابلة ، بينما الثالث ساكن في مكانه : فإن الواحد منهما يقطع طول الآخر في زمن هو نصف الزمن الذي يقضيه لقطع طول الساكن ، أي أن الانتقال من إحدى نقط المجموع الساكن إلى النقطة التي تليها يتم في آن هو ضعف الآن الذي يتم فيه الانتقال من إحدى نقط المجموع المتحرك إلى النقطة التي تليها ، فتقطع الحركة نفس المسافة (من حيث أن طول المجاميع واحد) في زمن معين وفي ضعف هذا الزمن ، فيكون نصف الزمن مساوياً لضيقه ، وهذا خلف ؛ وإذن فالحركة وهم .

٥ — ولكن زينون يتجاهل أن كل واحد من المجموعتين المتحركين يوفر بحركته نصف المسافة على الآخر ، بينما المجموع الساكن يبقها على حلقها ، وأن هذا هو سبب الفرق في الزمن . كما أنه يتجاهل أن المكان والزمان والحركة أشياء متصلة ، وأنها مع قبولها للقسمة إلى ما لا نهاية ليست مقسمة بالفعل إلى أجزاء غير متناهية . نقول إنه يتجاهل ولا ترميه بالجهل ، لأنه لم يقصد إلى نقد المقدار المتصل — والمقدار عند بارمنيدس خاصية من خواص الوجود — بل إلى نقد المقدار المنفصل كما توهمه الفيثاغوريون ، فجاءت حججه « لهواً جدياً » على حد تمبير أفلاطون<sup>(١)</sup> . ولما جاءت أصراً جديداً في الفلسفة ؛ فإنه لم يستعمل الجدل عرضاً وطبعاً على ما يتفق لسليقة العقل ، وإنما قصد إليه قصداً ، ووضعه في صيغة فنية ، فكان أول واضع لعلم الجدل ، وكانت حججه داعية لتحليل معاني الامتداد

(١) في محاوره « بارمنيدس » ص ١٣٧ (ب) .

والزمان والمكان والعدد والحركة واللاتهية عند أفلاطون ، وبالأخص عند أرسطو .

١٨ — مليسوس ( ٤٤٠ — ؟ ) :

أ — هو أيوني من ساموس . كان أمير البحر على عمارتها في انتفاضها على أثينا ، فانتصر على عمارة بركليس . فكان يجمع بين العلم والعمل كمعظم فلاسفة هذا العصر الأول الذين كانوا يفكرون في الوجود ويشغلون بالسياسة والاقتصاد . وضع كتاباً « في الطبيعة أى في الوجود » دافع فيه عن مذهب بارمنيدس لا ضد الفيثاغوريين كما فعل زينون ، بل ضد مواطنيه الأيونيين . فهو يمثل المذهب الإيبي في أيونية وآخر جاله .

ب — وتلخص مناقشته للمذاهب الأيونية القائلة بالكثرة والتغير كما يلي : لو كانت الأشياء وكيفياتها حقيقية على ما تبدو في الحس ، ولو كان هناك حقاً تراب وماء ونار وذهب وحديد وأبيض وأسود ، لوجب أن يبقى كل منها على حاله بدون تغير ، إذ أن ما يتغير يبطل أن يكون هو هو ، وكيف نصدق أن شيئاً هو بارد بعد أن نكون صدقنا أنه حار ؟ ولو صح التغير لكان معناه أن الوجود ينعدم ، وأن اللاوجود يظهر ، ولكن الطبيعيين أنفسهم يقولون إن شيئاً لا يخرج من لا شيء ، ولا يمود إلى لا شيء ، فقولهم يرتد عليهم ، والمعرفة الحسية التي يتمدون عليها كاذبة ، فإنها ترينا الوجود كثرة متغيرة ، والحق الواضح في العقل أن الوجود واحد متجانس ثابت .

ج — ويتلخص برهانه على هذه القضية في الأقوال الآتية : كل ما يحدث فله مبدأ ، وإذن كل ما لا يحدث ليس له مبدأ . وليس الوجود حادثاً وإلا كان حادثاً من اللاوجود وهذا خلف ؛ وإذن ليس للوجود مبدأ . وما ليس له مبدأ ليس له نهاية ، وإذن ليس للوجود مبدأ ولا نهاية ، فهو لامتناهٍ . واللامتناهٍ واحد فقط ، إذ يمتنع أن يوجد شيء خارج اللامتناهٍ . وهو ساكن من حيث إنه لا يوجد مكان خارجه يتحرك إليه . وهو ثابت لأنه إن تغير فقد باين نفسه ولم يمد واحداً . وإذن فالوجود واحد لا متناهٍ ساكن ثابت<sup>(١)</sup> .

د — وليس في هذه الأقوال من جديد سوى أن مليسوس يجعل الوجود لا متناهياً ، وكان بارمنيدس قد ذهب إلى أنه متناهٍ . وقد اعتقد مليسوس أن المطلق من حيث الزمان أى القديم مطلق كذلك من حيث المكان أى لا متناهٍ ، فماد إلى رأى الأيونيين . ولسكنه

(١) انظر أرسطو : السماع الطبيعي م ١ ف ٣ .

لم يبرهن على صحة الانتقال من المعنى الأول إلى الثاني ، وأخذ لفظ المبدأ على وجهين فنلظ  
أو غلط ، إذ أن ما ليس بحادث وليس له مبدأ زماني ، قد يكون له مبدأ من حيث المقدار أى  
حد في المكان . كذلك نراه يخرج من اللانهاى إلى السكون مع أنه يمكن تصور الوجود  
اللامتناهى يتحرك في مكانه<sup>(١)</sup> . ثم هو يفترق عن بارمنيدس في نقطة أخرى ؛ هي أنه مجرد  
الوجود من الجسمية الكثيفة ليسب عنه التجزئة ويصون وحدته ، دون أن يبين كيف  
يصح ألا ينقسم اللامتناهى في المكان مهما كان لطيفاً . وهناك فرق آخر يقربه من  
أكسانوفان ، هو أنه يضيف للوجود حياة عاقلة ، فدل بهذا على ميله إلى وجود روحاني أرقى  
من وجود بارمنيدس . — والآن نلظ الوجوه الثلاث التي أضربنا إليها في مفتتح هذا  
الباب قد توخيت للقارئ ، فمرف ماهية كل منها ، والفرق بينها ، وتدرجها من المحسوس  
إلى العقول .

---

(١) الموضع المذكور .

## الفصل الرابع

### عود إلى العلم الطبيعي

١٩ — أنبادوقليس (٤٩٠ — ٤٣٠) :

أ — ندرس في هذا الفصل فلاسفة ثلاثة متعاصرين عادوا إلى معالجة المسألة الطبيعية وهم متأثرون بالإيلية والفيثاغورية . يشتركون في القول بأن أصل الأشياء كثيرة حقيقية ، وأنه لا يوجد تحول من مادة إلى أخرى ، وإنما الأشياء تأليفات مختلفة من أصول ثابتة . ويفترقون في تصور هذه الأصول ، وطرائق انضمامها وانفصالها . هؤلاء الفلاسفة هم أنكساغوراس وأنبادوقليس وديموقريطس . ولما كان الأول قد تأخر في نشر آرائه عن الثاني مع أنه أقدم منه<sup>(١)</sup> وكان من جهة أخرى قد عمر بعمده ، وتفلسف في أئتنا ، واستقرت فيها الفلسفة منذ ذلك الحين إلى زمن طريل ، فقد أحرنا الكلام عليه .

ب — نشأ أنبادوقليس في إغريغنتا ، وكانت من أعظم مدن صقلية عمرانياً ، وفي أسرة من أوسع أسر المدينة ثروة ونفوذاً . وكان هو من أبنخ أهل زمانه . اشتهر بالفلسفة والطب والشعر والخطابة ؛ وقال أرسطو إنه منشىء علم البيان . أشبه فيثاغوراس في كثير من النواحي ، فكان قوى الماطفة الدينية إلى حد ادعاء النبوة بل الألوهية ، واستخدم علمه في سبيل الخير فصدق الناس دعواه وكانوا يتسابقون إليه أينما حل « يسأله البعض أن يهديهم طريق الصلاح ويطلب إليه آخرون أن يكشف لهم الغيب ، ويتوسل إليه غيرهم أن يسممهم الكلمة التي تشفى المرض » على حد قوله هو . وزاد في احترام الناس له وتعلقهم به أنه كان يعطف على الشعب ، ويسعى لتحقيق المساواة ، ويبدل ماله في الإحسان . فعرضوا عليه أن يتوج ملكاً على المدينة ، فأبى وعاون على إقامة الديمقراطية ودافع عنها . ثم شرع يحجوب أسماء صقلية وإيطاليا الجنوبية يؤدي نفس الرسالة . وعبر البحر إلى المورة ، وقضى هناك فيما يرجح .

ج — لم يحاول رد الأشياء إلى مادة أولى واحدة كما فعل الأيونيون ، ولكنه اعتبر موادهم الثلاثة ( الماء والهواء والنار ) عناصر وأصولاً ، وزاد عليها التراب ، فكان أول

(١) أرسطو : ما بعد الطبيعة م ا ف ٣ .

من وضع التراب مهبطاً ، ولعل ثقل التراب هو الذي منع القدماء من اعتباره كذلك . قال إن هذه الأربعة مبادئ ، على السواء ليس بينها أول ولا ثان ، لا تتكون ولا تفسد ، فلا يخرج بعضها من بعض ، ولا يعود بعضها إلى بعض . لكل منها كيفية خاصة : الحار للنار ، والبارد للهواء ، والرطب للماء ، واليابس للتراب ، فلا تحول بين الكيفيات ، ولكن الأشياء وكيفياتها تحدث بانضمام هذه العناصر وانفصالها بمقادير مختلفة ، على نحو ما يخرج المصور بمزج الألوان سوراً شبيهة بالأشياء الحقيقية . وإنما تجتمع العناصر وتنفرد بفعل قوتين كبيرين يسميهما المحبة والكراهية<sup>(١)</sup> : المحبة تضم الذرات المتشابهة عند التفرق ، والكراهية تفصل بينها . ويتقلب كل منهما حيناً في الدور الواحد من أدوار العالم ، دون أن تستقر الغلبة للمحبة فتسود الوحدة الساكنة ، أو للكراهية فتسود الكثرة المضطربة . فيمر العالم بدور محبة تتخلله الكراهية وتحاول إفساده ، ثم بدور كراهية تتخلله المحبة وتعمل على إصلاحه . فتارة ترجع الكثرة إلى الوحدة . وهي الكرة الأصلية الإلهية تتحد فيها العناصر جميعاً — وطوراً تنفرد الوحدة إلى الكثرة . وتتماقب الأدوار كل منها كما كان بالتمام إلى ما لا نهاية . والدور الذي نحن فيه الآن تسيطر عليه الكراهية .

و — وتتكون الآلهة والنفوس على النحو المتقدم ( وهو الوحيد الذي أدخل التراب في تركيب النفس ) . غير أنها أمرجة يعلب فيها الهواء والفار ، لذلك كانت ألطف وأدق . فالآلهة الحقة عنده العناصر والمحبة والكراهية . وكذلك تتكون الأجسام الحية : تجتمع العناصر بمقادير معينة بفعل المحبة « فتنبت في الأرض رؤوس بدون رقاب ، وتظهر أذرع مفصولة عن الأكتاف ، وعميون مستقلة عن الجباه » وتتقارب هذه الأمرجة اتفاقاً على أنحاء متعددة ، فتكون منها المسوخ ، وتكون المركبات الصالحة للحياة ، فتتفرض الأولى ، وتبقى الأخرى . فالحياة تملأ بأسباب آلية هي اجتماع العناصر وتأثير البيئة . والحياة واحدة في الأحياء جميعاً ، لا تختلف إلا بالضعف والقوة ، فلنبات شعور كما للحيوان ، ولكنه أضعف . ويفسر الإحساس بأنه تقابل الأشباه وإدراك الشبيه للشبيه : تنبعث عن الأشياء البخر لطيفة ، فتلاقى الحواس ، فإن كانت النسبة في التركيب متفقة في الجهتين ، دخل البخار المسام وكان الإحساس ، وهذا سبب أن الحاسة الواحدة لا تحس ما هو خاص بأخرى ، ولهذا السبب أدخل أبقراط قليس التراب في تركيب النفس ، أي لسكى تدرك الأشياء الترابية . أما

(١) وفي الكتب العربية أيضاً : المحبة والغلبة — والمحبة والعدوان .

الفكر فركزه عنده القلب ، لأن الدم أكل الأمزجة ، واختلاف الناس عقلا يرجع إلى اختلاف أجزاء الدم في حجمها وطريقة توزيعها وتمازجها . وإنما أخذ أنبادوقليس قوله إن القلب مركز الفكر عن مدرسة الطب في مقلية ، وقد صرنا ( ١٤ — ١ ) أن القميون إمام مدرسة أقروطرنا كان يذهب إلى أن مركز الفكر المخ — والنفوس البشرية آلهة خاطئة ، وقعت في سلطان الكراهية وقضى عليها أن تهيم ثلاثين ألف سنة بعيدة عن مقر السمداء ، وأن تنقصر على التوالى جميع الصور الفانية . قال أنبادوقليس إنه يذكر حيواته الماضية ، ويعلم أنه في المرحلة الأخيرة يبلغ بمدى إلى مقامه القديم بعيداً عن الشر والألم — وقد كان فيثاغوراس قد قال مثل ذلك عن نفسه . ووسيلة النجاة التطهير والزهد وتخليب العقل على الحواس ، فإن الحواس كثيرة وشقاى ، نخدعنا بأموار زائلة ، والمقل وحدة ومحبة ، والغاية القصورى المودة إلى المحبة والوحدة .

ه — ولسنا ندري كيف تنفق هذه الغاية مع الدور ( ١٣ — ج ) ولا كيف تكون العناصر في وقت ما — مع تباينها تبايناً جوهرياً — كرة متجانسة ، ثم تفصلها الكراهية مبادئ متباينة ، ثم تضعها المحبة في كرة متجانسة . ولسنا ندري ماهية المحبة والكراهية : أنتصورتها قوتين روحيتين ، فنسميهما الخير والشر ، أم قوتين طبيعيتين ، فنسميهما التجاذب والتنافر ؟ الفرض الأول يؤيد أن المحبة في رأى أنبادوقليس علة النظام والخير والجمال البادية في العالم ، والكراهية علة الاضطراب والشر والقيح<sup>(١)</sup> ؛ والملة التي من النوع الأول على الأقل عاقلة بالضرورة ، ولكنه في تفسيره أصل الأحياء يصور المحبة تفعل فنلا آلياً ، والأحياء تتألف اتفاقاً ، بحيث يترجع الفرض الثاني . ونحن على كل حال بإزاء مذهب يمد صراجاً من المذاهب السابقة ومحاولة للملاءمة بينها . فقد عني بالعالم الطبيعي على طريقة الأيونيين ، ولم يؤثر مادة على أخرى ، بل جمع بين المواد الأربع ؛ إلا أنه خطأ خطوة إلى الأمام بفصله الملة عن المادة ولو في التصور ؛ ووضعها مستقلة باسم المحبة أو الكراهية . وقد أخذ عن الفيثاغوريين التطهير والتناسخ والدور ، وفكرة أن الأشياء مركبات بمقادير معينة أى بنسب عديدة . وتابع بارمنيدس في القول بالكرة الأصلية ، وفي إنكار بفض التغيير وهو التغيير الكيفي ، فتصور حقائق الأشياء أصولاً ثابتة الماهية ، وتصور التغيير تنقل هذه الأصول .

(١) أرسطو : ١٠ بعد الطبيعة م ١ ف ٤ .

٣٥ — ديموقريطس ( ٤٧٠ — ٣٦١ ) :

١ - ولد في أديرا من أعمال تراقية ، وكانت مدينة غنية ، بناها فريق من الأيونيين بالقرب من مناجم ذهب . وقد ذكر عن نفسه « أن أحداً من أهل زمانه لم يقيم بمثل ما قام به من رحلات ، ولم ير مثل ما رأى من بلدان ، ولم يستمع إلى مثل ما استمع إليه من أقوال العلماء ، ولم يتفوق عليه في علم الهندسة ، حتى ولا المهندسون المصريون » . وفي مقدمة الذين استفاد منهم رجل اسمه لوقيبوس ، يرجح أنه ولد في ملطية ، ورحل إلى إيليا وأخذ عن زينون ، ثم جاء أديرا وأنشأ فيها مدرسة . وهذا كل ما نعرف عنه ، لذلك لا يفرد له مكان في تاريخ الفلسفة . وأرسطو يقرن اسمه دائماً باسم ديموقريطس تلميذه وصديقه ، ويضيف إليهما مذهباً واحداً . وعُرف هذا المذهب في القديم من كتب ديموقريطس ، وكانت تؤلف موسوعة كبرى في أسلوب تلميضي ، تناولت أصناف العلوم والفنون ( الأخلاق والطبيعة والنفس والطب والنبات والحيوان والرياضيات والفلك والموسيقى والجغرافيا والزراعة والصنائع ) ولم يبق لنا منها سوى شذرات متفرقة .

ب - ويلوح أن أصل المذهب محاولة التوفيق بين الأيلية والتجربة ، وأن لوقيبوس وديموقريطس كانا مقتنمين من جهة بقول الأيليين إن الوجود كله ملاء ، وإن الحركة ممتنعة بدون خلاء ، والخلاء لا وجود ؛ ومن جهة أخرى بأن الكثرة والحركة ظاهرتان لا تنكران . ودلتهما التجربة على وجود ذرات مادية غاية في الدقة ، كالتى تنطير في أشعة الشمس ، والذرات الملوثة التي تذوب في الماء ، والذرات الرأحمية التي تتساعد مع الدخان أو الهواء . ودلتهما التجربة أيضاً على أن اللبن والخشب يرشح منهما الزيت والماء ، وأن الضوء يخرق الأجسام الشفافة ، وأن الحرارة تخرق جميع الأجسام تقريباً . فبدا لهما أن في كل جسم مسام خالية يستطيع جسم آخر أن ينفذ منها . وكانت طريقتهما في التوفيق أن قسما الوجود الواحد المتجانس عند الإيليين ، إلى عدد غير متناه من الوحدات المتجانسة غير المنقسمة غير المحسوسة لتناهيها في الدقة ، ووضماها في خلاء غير متناه تتحرك فيه ، فتتلاقى وتنفترق ، فتحدث بتلاقيها واقترانها السكون والفساد . وقالوا إنها قديمة من حيث إن الوجود لا يخرج من اللاوجود ؛ وأنها دائمة من حيث إن الوجود لا ينتهي إلى اللاوجود ؛ وأنها متحركة بذاتها . وواحدتها الجوهر الفرد أو الجزء الذي لا يتجزأ ، فإنها جميعاً امتداد فحسب ، أو ملاء غير منقسم . فهي متشابهة بالطبيعة تمام التشابه ، وليست لها أية كيفية ، ولا تمايز بغير خاصيتين

لازمين من معنى الامتداد ، وهما الشكل والقدار : أما الشكل فمثل  $A$  و  $N$  ومنها المستدير والجوف والمحدب والأملس والخشن إلى غير ذلك ؛ وأما المقدار فبمغاوت مع إياته القسمة ، وخاوه عن الثقل . كذلك يتميز الخلاء الفاصل بينها بالمقدار والشكل . وليس الخلاء عدماً ، ولكنه امتداد متصل متجانس ، يفترق عن الملاء بخاوه من الجسم والمقاومة . ويسمى لوقيوس وديموقريطس الملاء وجوداً ، والخلاء لا وجوداً ، ويعتبرانها علتين ماديتين على السواء<sup>(١)</sup> : ذلك أنهما ظنا أنه لولا الخلاء لما تمايزت الجواهر ولما كانت الكثرة ، ولا منتهت الحركة ، وأن القول بالحركة والكثرة يقتضي حتما القول بالخلاء ، واعتباره مبدأ حقيقياً إلى جانب الملاء .

ح - وتفصيل القول في كون الأشياء وفسادها أن الحركة تعصف بالجواهر منذ القدم ، وتوجهها إلى كل صوب في الخلاء الواسع ، فتقابل على أنحاء لا تحصى ، وتتشابك بنتواتها وتتألف في مجاميع هي الموجودات . وإنما تختلف الموجودات باختلاف الجواهر المؤلفة لها شكلاً ومقداراً ، ثم باختلاف الجواهر المتشابهة الشكل ترتيباً ووضماً بعضها من بعض : الترتيب مثل  $N$  و  $A$  و  $N$  ، والوضع مثل  $H$  و  $Z$  و  $N$ <sup>(٢)</sup> بحيث يمكن القول أن الأشياء هندسة وعدد . ولما تتكون المجاميع تتكسب الثقل والخفة ، فالأثقل هو الأكبر حجماً والأقل خلاء ، يستقر بسهولة في المركز ، ويتحرك ببطء ؛ والأخف هو الأصغر حجماً والأكثر خلاء ، ينتثر بسهولة نحو محيط المجموع ، سواء أ كان هذا المجموع عالماً أو شيئاً جزئياً في العالم الواحد . وتكسب سائر الكيفيات المحسوسة ، من لون وطعم وحرارة وغيرها ، فإن هذه الكيفيات تابعة من ناحية لتركيب الأشياء ومسافتها منا ووضعها ، ومن ناحية أخرى لتركيب الأشخاص وتغيرهم من حال إلى حال ، والشواهد كثيرة<sup>(٣)</sup> . لذلك يقول ديموقريطس إنها « اصطلاح » أي نسبة حادثة بين الجواهر في الأشياء وفي الحواس ، وأنها موضوع معرفة غامضة . أما الجواهر والخلاء فإنها موجودة حقاً ، وهي الموضوع الوحيد للمعرفة الحقة .

د - والنفس مادية طبيعياً ، مؤلفة من أدق الجواهر وأسرعها حركة ، من حيث أن النفس مبدأ الحركة في الأجسام الحية . ومثل هذه الجواهر هي المستديرة التي تؤلف النار

(١) أرسطو : مبادئ الطبيعة م ١ ف ٤ ؛ وكتاب السكون والفساد م ١ ف ٨

(٢) أرسطو : مبادئ الطبيعة : الموضوع المتقدم

(٣) انظر أرسطو : السكون والفساد م ١ ف ٢

الطاف المركبات وأكثرها تحركاً . فالنفس جسم ناري . وهذه الجواهر منتشرة في الهواء ،  
يدفعا إلى الأجسام ، فتتغلغل في البدن كله ، وتتجدد بالتنفس في كل آن . وما دام التنفس  
دامت الحياة والحركة<sup>(١)</sup> . وهي أوفر عدداً في مراكز الإحساس والفكر ، أي في أعضاء  
الحواس والقلب والسكبد والنخ ، فإنها تكتسب الحساسية إذا توافرت . وما دامت حاصلة  
كلها في البدن دام الشمور ، فإذا ما فقد بعضها كان التوم واللاشعور ، وإذا فقد مظهرها  
كان الموت الظاهر ، وإذا فقدت جميعاً كان الموت الحقيقي أي فناء الشخص . وتحقيق  
الإدراك الحسي أن بخارات لطيفة تتحلل من الأجسام في كل وقت محتفظة بخصائص الجسم  
المتحللة منه ، فهي صور وأشباه تعمل في الهواء المتوسط بين الشيء والحاسة فعمل الحاتم  
أو الطابع في الشمع ، وتغلغل في مسام الحواس فتدرك . وإنما يختلف انفعالنا بها لاختلاف  
الجواهر المؤلفة للأجسام ، فالخشنة منها تؤلف الأجسام الحامضة المرة ، بينما اللساء تؤلف  
الأجسام الحلوة ، وهكذا . وأما الفكر فما هو إلا الحركة الباطنة التي تحدثها الإحساسات في  
النخ ، أو هو الصورة المحسوسة المطلقة ، فإن الإحساس هو المصدر الوحيد للمعرفة . — فلم  
نخرج عن المادة . وإذن فليس للإنسان أن يرجو خلوداً ، وإنما سمادته في طمأنينة النفس  
وخلوها من الخرافات والخاوف . وتحقيق هذه الطمأنينة بالملم بقانون الوجود والتسليم له ،  
والتمييز بين اللذات ، والترام الحد الملائم فيها ، فإن تجاوز الحد يجز الأمل .

هـ — ديموقريطس مضى بالذهب الآلى إلى حده الأقصى ، ووضعها في صيغته النهائية ،  
فقال إن كل شيء امتداد وحركة فحسب ، ولم يستثن النفس الإنسانية كما رأينا ، ولم يستثن  
الآلهة : فذهب إلى أنهم مركبون من جواهر كاللبشر ، إلا أن تركيبهم أدق ، فهم لذلك  
أحكم وأقدر وأطول عمراً بكثير . ولكنهم لا يخلدون ، فإنهم خاضعون للقانون العام ، أي  
للفساد بعد الكون واستئناف الدور على حسب ضرورة مطلقة ناشئة من « المقاومة والحركة  
والتصادم » دون أية غائية أو علة خارجية عن الجواهر ، مثل المحبة والكراهية ، ودون أية  
علة باطنة مثل التكاثف والتخلخل ، ودون أية كيفية . فالذهب غاية في البساطة ، ولكنه  
حافل بالصعوبات : فما هذه الضرورة التي يزعمها ديموقريطس لاجتماع الجواهر واقتراقها على  
نظام مطرد وأنواع ثابتة ؟ أليس الأصح أن عالمه عالم اتفاق ومصادفة ؟ بل ماهى علة الحركة ،  
منظمة كانت أم مضطربة ؟ ونحن نفهم أن الثقل غير لازم بالذات من الكمية ، ولكن سلبه  
عن الجواهر يسلب عنها الحركة ، فتبقى في سكون مطلق . ثم كيف تتفاوت الجواهر بالمقدار

(١) أرسطو : كتاب النفس م ٦ ف ٢

وتتفق في عدم الانقسام ؟ بل كيف يمكن أن يكون عدم الانقسام خاصية أصلية للجوهر ، والجوهر امتداد بحيث خلو من كل مبدأ يرد له للوحدة ؟ وما هو الخلاء ؟ وكيف يوجد امتداد غير مقارم ؟ وديوقريطس يعتبر المعرفة الحسية نسبية ، ، ويقول إن المعرفة الخلقية في العقل ، ولكنه يحمل العقل حسى الحس ، ولا يفسر كيف يرتفع العقل فوق الحس ويدرك اللامحسوسات ، مثل الجواهر والخلاء ، وكيف يتفق الإحساس والعقل للطبيعة السادية بما هي مادية ؟

### ٣١ - انكساغوراس ( ٤٢٨ - ٥٠٠ ) :

١ - ولد في أفلازومين بالقرب من أزمير من أعمال أيونية ، في أسرة شريفة . وتلقى العلم في مدرسة انكسيانس على ما يرجح . ولما ناهز الأربمين نرح إلى أثينا ، وكانت قد بلغت مكانة عالية بعد انتصارها على القرس وحصد فارتهم عن العالم اليوناني ، وكان بركليس يستقدم إليها الأدباء والعلماء ليجمع منها صر كز اليونان في الثقافة والسياسة على السواء . فلما دخلها انكساغوراس دخلت معه الفلسفة لأول مرة . أقام فيها ثلاثين سنة ، كان في خلالها قطب الحركة الفكرية . ولما آذن نجم بركليس صديقه وولي نعمته بالأقول ، أصبح هدفاً لكيد الخصوم السياسيين ، واتهموه بالإلحاد آمليين أن ينالوا من الرجلين جميعاً ، واستشهدوا بما كان قد ذهب إليه من أن القمر أرض فيها جبال ووديان ؛ وأن الشمس والكواكب أجرام ملتهبة لا تختلف طبيعتها عن طبيعة الأجسام الأرضية ، كما تبين من مقابلة الأحجار المتساقطة من السماء بما عندنا من أحجار . ولم يكن الأثينيون يطيقون مثل هذا القول لاعتقادهم أن كل ما هو سماوي فهو إلهي . فاضطر لمصادرة المدينة وعاد إلى آسيا الصغرى ومات فيها

ب - وهو يعتقد أن الأشياء متباينة في الحقيقة كما تبدو لنا ، وأن قسمة الأجسام ، بالنفة ما بلغت ، تنتهي دائماً إلى أجزاء مجانسة للكل : تنتهي إلى لحم في اللحم ، وإلى عظم في العظم ، فلا تلاشي القسمة أبداً طبيعة الشيء المقسم . وعلى ذلك فلا ترد الأشياء إلى مادة واحدة ، أو إلى بضع مواد معينة ، ومن باب أولى إلى تنوع الكمية والحركة . على أن الذي حدا بالطبيعيين إلى موافقهم هو المشاهد من تحول الأشياء بعضها إلى بعض ، وضرورة تفسير هذا التحول ؛ وانكساغوراس يعلم ذلك ، يعلم مثلاً أن الخبز الذي نأكله ، والماء الذي نشربه ، ينميان جميع أجزاء البدن على السواء من دم ولحم وعظم وشعر وظفر الخ ، ولكنه يأبي

أن يتأبهم ، وإنما يقول : إذا كان الوجود لا يخرج من اللاوجود — باتفاقهم جميعاً — فكيف يخرج الشمر من اللشمر ، واللحم مما ليس لحماً ؟ « أماننا ثلاث قضايا كبرى : الواحدة أن الأشياء متباينة بالذات — والثانية أن لا يخرج الوجود من اللاوجود — والثالثة أن الكل يتولد من الكل ( أو أن أى شيء يتولد من أى شيء ) . فإذا أردنا الاستمساك بها جميعاً ، قلنا إن الأشياء موجودة بعضها في بعض على ما هي ، وأن الكل في الكل أى أن الوجود مكون من مبادئ لا متناهية عدداً وصنفراً هي طبائع أو جواهر مكيفة في أنفسها ، تجتمع في كل جسم بمقادير متفاوتة ، فيتحقق بهذا التفاوت الكون والفساد ، ويقين لكل جسم نوعه بالطبيعة الغالبة فيه ، بحيث يكون كل جسم عالماً لا متناهياً يحوى الطبائع على اختلافها كلاً منها بمقدار ، فتختلف الظواهر والأسماء . وإذن فلما وانجز يهويان مبادئ لا متناهية في الصغر عظيمة وحسية ودموية . . . بل إن المبادئ جميعاً تلتقي في كل ذرة تقع تحت الحس ، فلا يوجد جسم محسوس هو متجانس مهما دق ، بل المتجانس الطبائع الأولى . لذلك سماها بالمتجانسات ( « متشابهة الأجزاء » عند الشهرستاني ) وهي أدق من أن ينالها الحس ، ولا يوجد كلُّ هو أبيض خالص ، أو أسود أو حلو أو لحم أو عظم ، ولكن ما يغلب في الشيء هو ما ياروح أنه طبيعته ، فيعرف به ويتميز عما عداه . فالكون والفساد استحالة شيء إلى شيء بأن يزيد بمض الطبائع فيظهر للعواس ، أو ينقص فيخنى عليها ويظهر غيره . وبعبارة أخرى « الكون ظهور عن كون » ( الشهرستاني ) والفساد كون بمد ظهور ، دون أى تميز في الكيفية<sup>(١)</sup> .

ح — والطبائع قديمة . ولسكنها ليست متحركة بذاتها ، وليس لها ما يجعلها تنظم من تلقاء نفسها . كانت في الأصل مختلطة أشد اختلاط ، وكان هذا المزاج الأول متساوياً غاية التساوى ، لا يتميز فيه شيء من شيء على ما ارتأى انكسيمندريس حين وضع اللاتماهي . ثم حدثت بفعل فاعل الحركة التي ميزتها ونظمتها . وليس هذا الفاعل الاتفاق ، فإ الاتفاق إلا لفظ نستربه عجزنا عن اكتشاف العلة ؛ وليس هذا الفاعل القدر ، فإ القدر إلا لفظ أجوف اخترعه الشمراء . إنما الفاعل العقل « أظن الأشياء وأصفها ، بسيط مفارق للطبائع كلها ، إذ لو كان ممتزجاً بشيء آخر أيا كان لشابه سائر الأشياء ، ولما استطاع وهو ممتزج أن يفعل بنفس القدرة التي يفعل بها وهو خالص ، عليم بكل شيء ، قدير على كل شيء ، متحرك

(١) أرسطو : السماع الطبيعي م ١ ف ٤ كله . — الكون والفساد م ١ ف ١ — ما بعد

بذاته « حرك الزاج الأول في إحدى نقطه ، فامتدت الحركة واتسعت في دوائر متتامة حتى عمت الكل . وانفصلت الأجرام السماوية عن المركز ( الأرض ) بالحركة الأولى ، وترتبت الأشياء كل في مكانه ؛ الخفيف إلى أعلى ، والثقيل إلى أسفل . وستظل الأجرام السماوية مستقلة حتى تنفذ القوة التي تستبقيها في مداراتها فتعود إلى المركز . أما الأجسام الحية فقد أتمها الحياة بمشاركة العقل ، والعقل نفس تصدر عنها نفوس .

و - ولسنا نناقش أنكساغوراس فيما يثير مذهبه من إشكالات أهمها وضمه عدداً لا متناهياً من الطبائع في الجسم المتناهي . ونقتصر على ملاحظة أنه يفسر السكون تفسيراً آلياً مثل من تقدم من الطبيعيين<sup>(١)</sup> حتى إنه يعمل رقي الحيوان على النبات بأنه طليق غير مرتبط بالأرض ، ورقي الإنسان على الحيوان بأن له يدين ، وأن اليد خير الآلات ونموذجها دون أن ينسيف أي أثر للعقل الذي قال به علة محرّكة منظمة ، بحيث يمكن وصف مذهبه بأنه « آلية كيفية » . الحق أنه لم يفطن لخصب هذه الفكرة ، ولم يوفق إلى استقلالها ، ولكنها فكرة جليلة كافية لأن تجعل له مكاناً خاصاً في هذا الدور من الفلسفة . قال بها « فبدا كأنه الوحيد الذي احتفظ برشده بإزاء هذيان أسلافه »<sup>(٢)</sup> ؛ وأهتزت لها نفس أفلاطون وانبعثت إلى تفكير عميق المدى<sup>(٣)</sup> . وإذا أضفنا إليها تصور الوجود طبائع وماهيات ، أي أشياء عقلية ومعقولة ؛ عدنا أنكساغوراس في طليعة الحركة السقراطية والفلسفة الروحية .

(١) أفلاطون : فيدون ص ٩٨ — ٩٩ . أرسطو : ما بعد الطبيعة م ١ ف ٤ — وانظر فيما بعد

عدد ٣٩ .

(٢) أرسطو ما بعد الطبيعة م ١ ف ٣ .

(٣) فيدون : ص ٩٧ وما بعدها .